تأملات في عذوبة الكون

أحمد بهجت



الزهراء
للإعلام
العربي

أول يوم فى التاريخ

هناك تاريخ لم يكتبه أحدنا ، هو (١/١/١) .. أول فى أول شهر فى أول عام خلقت فيه الدنيا ..

كان هذا يوم زفاف التاريخ إلى الأرض ، ويوم زفاف حواء إلى آدم .. يوم بداية الحياة البشرية .

وكان العرس مقصوراً على آدم وحواء كان الشاهد الوحيد هو الله تبارك وتعالى ، أما الملائكة فراحوا يتأملون -بدهشة البراءة- هذه الخليقة الجديدة التى تعرف الحب رغم الرداء الترابى الذى ترتديه ..

هذا هو الزواج الحقيقى الذى لم يحضره أحدنا وليست له صورة عند أحدنا ..

ماذا كتب آدم فى دبلة الزواج ؟ وماذا كتبت حواء فى دبلتها ؟، لماذا لم يكتب أحدهما هذا التاريخ (١/١/١) ؟ ..

لم تكن هناك دبلة ولازواج ، كان هناك ارتباط بغير زواج ، كان هناك عناق روحى دائم ، كان هناك أول يوم من أول شهر من أول عام خلقت فيه الدنيا ، أى جمال كان لهذا اليوم غير جمال البراءة والحزن ..

خرج آدم وحواء من الجنة وهبطا إلى الأرض . لم يكن فى الجنة شهور ولا أيام ولاسنوات ولاشمس ولا زمهرير ولا

مرض ولا موت ولا هموم ، ثمة خلود فحسب ، والخلود لا يعرف هم القلق أو الحساب ، ثم هاهما ينزلان الى الأرض ، والأرض مخاطرات محسوبة وصراع وهلاك ..

أدرك آدم وحواء انهما يبدآن حياة جديدة تماما .. لقد هبطا من الجنة .. وعصى آدم ربه فغوى ثم إجتباه ربه فتاب عليه وهدى .. نسى آدم أنه جائع،وفكر: ماذا يقدم من طعام لهذا اليوم الأول ؟ .

دموع الندم

لاشيء فى مكنته غير دموع الندم ...

بكى الجد الأعلى للبشرية .. كان يبكى ذكريات أيام الصفاء الأولى ، وكان يبكى مافقده من ثمار جنة الطاعة والقرب ، وهى ثمار كان مذاقها مازال عالقا بفؤاده ..

بوصفى حفيدا لآدم ، مازلت أحس بالحنين لهذا اليوم الأول من الشهر الأول من العام الأول من بدء الحياة ..

أى براءة كانت لهذا اليوم ، وأى عرس تم فيه ، وأى سر خبأه اليوم وانطوى عليه .. وأى أفراح بكر كانت تلون ثوانيه ودقائقه وساعاته ..

كانت الشمس عذراء لم تزل ، وكانت حواء عذراء ، وكان آدم يغسل بدموع الندم واحتراق القلب بالحنين هذه الساعات الأولى .. ومرت الدهور والحقب وصار اليوم حلما .. أما من سبيل لإيقاظ الحلم وبعثه والحياة فى محارة البراءة ؟ .. أما من سبيل ؟

صمت العشاق

فى بداية حياتى ، تصورت أننى أعرف الأرض وثمراتها الدفينة ، ولكننى كنت أبحث عن حلم ، عن عالم عميق ومجهول .. وكنت أتكلم كثيرا ..

وكثيرا ما تأملت الأشياء .. ثمة شيئان لايشبع المرء من تأملهما .. السماء ذات النجوم .. والوجه البشرى ..

كنت أنظر إلى السماء بدهشة ، وإلى وجوه البشر بنفس الدهشة ، وكنت أتكلم كثيرا ..

كان يخيل إلىّ – من فرط الحمق البشرى والعجلة – أنك تستطيع أن تعانق بكارة الأشياء بالكلام ..

كنت واهما .. اعترف ..

وها هو ذا النفرى يحدثنا فى المواقف والمخاطبات

□ كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ..

أخيرا ندلف إلى الصمت ..

إذا أحببنا كالعشاق ، إذا احترقنا مثلهم .. صارت لنا أحوالهم تماما .. وللعشاق صمت له مذاق الغناء ..

إنهم يصمتون .. آه ..

ولكن أى آهات يغنيها هذا الصمت .. حزانى .. نعم .. عندهم وفاء .. نعم .. لقد دخل الشتاء أخيرا ..

ووقع تغيير مدهش لثلاث شجيرات أمام بيتنا .. ماتت الشجيرات الثلاث .. سقطت كل الخضرة التي كانت تلون الأغصان .. وقعت معجزة الموت دون أن ندرى ، وولدت بالمعجزة هذه الغيمة التي لا تريد أن تبكى هناك .. وحل الشتاء أخيرا ..

كيف ينسى الناس أحزانهم بسهولة ؟ كيف ينسون موت الأشجار فى الشتاء ، وسقوط أوراقها الصفراء الجافة المتكسرة ..

جلس العشاق على مائدة الصمت .. دارت كئوس الخمر عليهم فشربوا وبكوا فى الكئوس .. قال أحدهم : الصمت شعارنا نحن العشاق ..

تسألون لماذا .. ؟ فى عالم يترصد فيه الشر بكل نفس حية ، يكون الصمت هو القاعدة .. فى عالم تذبح فيه البراءة .. ويمنح الشر جواز سفر إلى القمر .. وتتحول الكلمات إلى رقصات يداعبن خيال السكارى ..

فى مثل هذا العالم .. يكون قانون الصمت هو قانون الكبرياء والترفع والسلامة .. ومن ثم يصمت العشاق ..

حتى عشاق الأفكار المستحيلة ، والمثاليات البعيدة ..
حتى هؤلاء يدخلون كهوف الصمت ويجلسون ..
تدور عليهم كئوس الخمر ..
ها هم أولاء يشربون ويبكون فى الكئوس .

ووقع تغيير مدهش لثلاث شجيرات أمام بيتنا .. ماتت الشجيرات الثلاث .. سقطت كل الخضرة التى كانت تلون الأغصان .. وقعت معجزة الموت دون أن ندرى ، وولدت بالمعجزة هذه الغيمة التى لا تريد أن تبكى هناك .. وحل الشتاء أخيرا ..

كيف ينسى الناس أحزانهم بسهولة ؟ كيف ينسون موت الأشجار فى الشتاء ، وسقوط أوراقها الصفراء الجافة المتكسرة ..

جلس العشاق على مائدة الصمت .. دارت كئوس الخمر عليهم فشربوا وبكوا فى الكئوس .. قال أحدهم : الصمت شعارنا نحن العشاق ..

تسألون لماذا .. ؟ فى عالم يترصد فيه الشر بكل نفس حية ، يكون الصمت هو القاعدة .. فى عالم تذبح فيه البراءة .. ويمنح الشر جواز سفر إلى القمر .. وتتحول الكلمات إلى رقصات يداعبن خيال السكارى ..

فى مثل هذا العالم .. يكون قانون الصمت هو قانون الكبرياء والترفع والسلامة .. ومن ثم يصمت العشاق ..

حتى عشاق الأفكار المستحيلة ، والمثاليات البعيدة ..

حتى هؤلاء يدخلون كهوف الصمت ويجلسون ..

تدور عليهم كئوس الخمر ..

ها هم أولاء يشربون ويبكون فى الكئوس .

اللــــبن

هل تعرف زهور الفل أو الياسمين أنها تعطر الجو برائحتها أم لا تعرف ؟ وإذا كانت تعرف ، فلماذا تقدم عطرها مجانا للناس ليبيعه الناس ويشتروه بعد ذلك بغير أن تحصل هى على أى ربح أو عائد .. ؟

سؤال آخر

هل تعرف الأبقار وهى تقدم اللبن ؟ أنها تنتج غذاء لا غنى عنه للبشر ، أطفالا كانوا أم شيوخا أم عجائز .

سؤال آخر .

لماذا تمرض الحيتان وتلتوى أمعاؤها من الألم فيخرج من شلال القيح والصديد نبع صغير من العنبر .. هذه المادة السحرية التى تعين على الشيخوخة وتعتبر أغلى دهون هشة معطرة ..

عندى كثير من هذه الأسئلة .

لست بورجوازيا من (تولوز) ، كما يقول أنطوان دى سانت أكسوبرى ، إن البورجوازى عنده هو الرجل الآمن الذى لايسأل نفسه سؤالا بغير جواب

هناك آلاف الأسئلة بلا جواب ، سوى هذا الجواب البسيط الممتنع – هكذا شاء الله

كيف يخرج العطر من طين الأرض .. كيف تخرج رائحة عذبة من رائحة قبيحة ، وكيف يخرج اللبن من بين الدم والفضلات ، إن اللبن هذا السائل المدهش الأبيض الذى لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه ، سواء فى طفولته أو شيخوخته أو ما بينهما .. هذا اللبن هل تعرف من أى ينبوع يخرج .؟

من بين فرث ودم والفرث هو نفايات الطعام المهضوم ، أما الدم فمعروف ، ومعروف أيضا أن أحدا لايستطيع شربه أو استساغته ..

لن أحدثك عما فى اللبن من غذاء أو فائدة أو فيتامينات ، لن أقول لك : إنه غذاء كامل يستطيع المرء أن يعيش عليه وحده مدى الحياة .. لن أحدثك عن هذا كله . فقط أريد أن ألفت انتباهك إلى معجزة خروجه من بين نهرى الفرث والدم ..

كيف لا يتلوث اللبن وهو يخرج من هاتين الحمأتين .. كيف لا يتلوث ؟

كيف يخرج سائغا طيبا نقيا للشاربين ؟

أليست هذه معجزة إلهية .. ؟ سبحان الله تعالى .

ما أعظم حيرتنا أمام آياته فى الكون وفى أنفسنا .

وما أعظم رحمته بالبشر .

وما أدق أسرار لطفه بالكائنات ..

حلم البنت

يحكى أن طفلة صغيرة رأت ذات ليلة حلما رائعا وأرادت أن يشاركها الناس نشوتها بذلك الحلم .. فخرجت تهيم فى كل مكان تريد أن تروى حلمها الرائع للناس حتى وصلت إلى حديقة .. كانت الحديقة مزدحمة بالناس وكان على بابها حارس يمنع دخول غير المرغوب فيهم ، فطلبت البنت من الحارس أن يسمح لها بالدخول ، وأن يأذن لها بأن تروى حلمها الرائع للموجودين ورفض الحارس ، ولكن البنت الصغيرة قالت : إنها تريد أن يعرف الناس حلمها الرائع وأن يشاركوها النشوة التى منحها لها . وأخيرا وبعد جدال طويل قال لها الحارس : « إنك تستطعين الدخول إلى الحديقة لرواية حلمك ولكن بشرط أن يكون حلمك جميلا وإذا لم يكن حلمك جميلا ، فإنك ستموتين » ، وهكذا دخلت البنت الصغيرة إلى الحديقة وروت حلمها الذى كان جميلا ثم تركوها تخرج بسلام .

وذهبت الطفلة إلى حديقة ثانية وطلبت أن يسمح لها بأن تروى حلمها الجميل ، فقال لها الشخص المسئول عن الحديقة : « فلتدخلى»ولتروى حلمك ولكن بشرط واحد .. وهو أن يكون حلمك حقيقيا فإذا لم يكن حلمك حقيقيا فإنك سوف تموتين » .. وهكذا دخلت البنت الصغيرة إلى الحديقة الثانية ،

وروت حلمها الجميل الذى كان حقيقيا فتركوها تخرج بسلام .

وإلى حديقة ثالثة ذهبت البنت الصغيرة و لم يسمح لها الحارس بالدخول فى أول الأمر ، ولكن لما ألحت عليه فى الرجاء سألها الحارس : « هل هناك ضرورة لرواية حلمك ؟ فلما أجابت البنت بالإيجاب اذعن لرغبتها وسمح لها بالدخول ، ولكنه حذرها من العواقب : إذا لم تكن هناك ضرورة لرواية حلمك ، وبالتالى لسماعه فإنك سوف تموتين »

دخلت البنت الصغيرة إلى الحديقة وروت حلمها الذى كان جميلا ، والذى كان حقيقيا ولكنها لم تخرج من الحديقة أبدا .. لأنه لم يكن هناك ضرورة ملحة لرواية ما روته !

هذه هى القصة التى يدرسونها فى بعض أكاديميات الفنون عن طبيعة الفن المثلثة ، وهى الجمال والحقيقة والضرورة الفنية .. وأحيانا يكون الفن جميلا ، وحقيقيا ، ولكن لا يكون ضروريا ، بمعنى أن الحياة لاتخسر كثيرا إذا لم يوجد ،وأحيانا يكون الفن جميلا وضروريا ولكن ليس حقيقيا ، لا بمعنى أنه كذب و لم يحدث ولكن بمعنى الحقيقة الفنية أو إقناع الجمهور بأن مالم يحدث أكثر حقيقة مما حدث .. أحيانا أتأمل كثيرا مما تقدمه أجهزة الفن من فنون بهذه القصة ، فأرى أن البنت صاحبة الحلم تروى حلمها الذى يفتقر إلى الجمال،والحقيقة والضرورة ، ورغم ذلك يصفق لها الناس ويحيونها .. أليست هذه مأساة ؟ .

مخلـوق عجيب

البرد من أعجب المخلوقات التى تعيش معنا على سطح الأرض ، ويتدثر البرد عادة بعباءة الرياح ، ويعلن عن نفسه قبل وصوله شأن العظماء والملوك والقادة،ولا يكاد البرد يوجد فى مكان حتى تحنى الحرارة رأسها وتبدأ فى التقلص والانكماش حتى تتحول إلى ثلج أبيض أخرس .

والبرد ليس ضيفا تستطيع أن تستقبله بتأفف كالصيف ، أو بفتح صدرك العارى كالربيع ، البرد ضيف لابد أن تحترم قدومه وتتهيأ له بطقوس خاصة واستعدادات خاصة .

لاتستطيع مثلا أن تقابل البرد بالجلباب أو الفانلة .. إن البرد لايحب رفع الكلفة ، وهو مخلوق وقور لايغتفر أى عرى أو عبث ، وأى محاولة للاستهانة به تطرح صاحبها صريعا فى الفراش ، ويعاقب البرد من لا يرعون وقاره عقابا صارما ولكنه لطيف ، كأنه يصدر من أب يربى أبناءه ، إن البرد لا يقتل ، ولكنه يجعلك ترتعش وتسخن وتبرد وتعطس وتكح .. ويصل الأمر إلى حد« البربرة».. وهكذا يعاقب البرد - وهو وقار الفصول - كل من يعانده بنزع وقاره تماما ، والبرد رغم قسوته

المبطنة بالحنان لا يعاقب طويلا .. أيام قليلة فى الفراش .. تحس فيها أنك بمأمن من كل أخطار الطرق وحوادث الدهر وصروفه

والبرد ملك حقيقى يرتعش أمامه الملوك والصعاليك والأغنياء والفقراء والأذكياء والأغبياء ..

لايقبل الملك الحقيقى أقل من الولاء المطلق من جميع رعاياه رغم اختلافتم .. والبرد هو المخلوق الذى أدى إلى ملايين الزيجات التى وقعت على سطح المعمورة ، فإن الأعزب يقتنع بأهمية الزواج بعد ليالى الشتاء التى يقضيها وحيدا فى بيته مثل حيوان برى مستوحش

ولولا البرد لما تكاثرت البشرية بهذه السرعة ،فإن البرد يدفع إلى التلاصق ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ..

والبرد هو فصل الكتاب والشعراء والفنانين ، وتبلغ حكمة البرد أنه يدفع الأفاعى والسحالى إلى النوم طوال أيامه ، ولكنه يطلق أولاد الأفاعى من الكتاب والشعراء إلى السهر فى لياليه الطويلة .

والبرد كله مزايا وفضائل ، وليس له سوى عيب واحد ، انه يحتاج إلى تغذية خاصة وطعام وفير يدخل فيه الزبد والبيض واللحم والفواكه وهذا كله مرتفع السعر عزيز المنال ..

لولا هذا العيب لكان البرد مخلوقا بلا عيوب .. ولكن الحلو لايتكامل كما تقول أمثالنا العامية .

في الدعـــاء

سافرت اكثر مما سافر السندباد ، وشاهدت أعظم المدن والبحار وقابلت حمقى يتصورون أنهم يوجهون العالم ، ودخلت أغنى القصور وافقر الأكواخ ، واستمعت الى منطق الفلاسفة وهذيان العشاق ، وجربت النجاح والفشل ، والحب والكراهية ، والغنى والفقر ، وعشت حياة مليئة بالتجربة والسفر والقراءة والتأمل لكننى أعترف بأننى لم اكتشف معنى السعادة ، إلا خلال هذه اللحظات التى كنا نسجدها فى بيت الله الحرام فى مكة .

لم يكن معنى السعادة نابعا من وجودى فى البيت العتيق ، ولاكان ينبع من تصورى أن ذنوبى قد غفرت ، ولاكان ينبع من هذا الحلم بدخول الجنة ، كانت سعادتى تنبع من أمر آخر تماما .

إن الاحساس بأن الانسان يصلى لله احساس مدهش ، ولكن الصلاة قد تقع والقلب غائب ، وهنا تتحول الصلاة الى حركات تشبه التمرينات الرياضية ، وينقطع الاتصال بالله تعالى ، وتفقد الصلاة روحها حين يغيب القلب عن الحضور .

ويدعو الناس فلايستجاب لهم ، ويدهشون لأنهم يصلون ويدعون ولا إجابة ومن المعانى الدقيقة فى الإسلام أن المسلمين يسمون فعلهم للصلاة إقامة .. يقول الإمام « أقم الصلاة » وإقامة الشيء توحى للذهن أننا بصدد تشييد شيء أو بنائه . وهذا صحيح تماما فى الصلاة .. إنها بناء شامخ يبدأ باسم الله ، وهى بناء يقع فى أرض الروح المجهولة الغامضة ، وبغيرها تصير الروح أرضا خرابا .

ومن الأشياء التى تثير التأمل أن الرسول تحدث عن الصلاة بحب شديد ، « فقال » .. وجعلت قرة عينى فى الصلاة » كما أنه سمى صلاة القيام بصلاة التراويح ، اشارة إلى ترويحها عن الروح ، ايضا تجدر الاشارة الى فرض الصلاة فى ليلة الاسراء والمعراج ، حين كان الرسول ﷺ عند جنة المأوى .. وبهذه الاشارات كلها تكون الصلاة هى الجنة المؤقتة التى يدخلها المؤمن – أيا كان دينه – على الأرض .

وأى صلاة حقيقية هى رحلة الى الجنة ، بل لعلها تتجاوز نعيم الجنة ارتفاعا الى الوقوف بين يدى خالق الجنة والجحيم سبحانه .

كيف يصل المرء إلى إقامة الصلاة حقا .. ؟

إن الطريق إلى إقامة الصلاة حقا هو استشعار عظمة الله فى القلب والإحساس بأن الإنسان يقف بين يدى من بيده ملكوت كل شيء .. إن المرء منا يتزين ويتجمل ويظهر بوجهه الجميل لمن يحب ، أو يفعل ذلك إذاقابل مسئولا عنه أو عظيما من عظماء الأرض أو حاكما أو أميراً أو سلطانا .. وكل هؤلاء عباد مثلنا .. كيف يجب أن نقف أمام رب العباد ؟ ، لو وقفنا بالخشوع الواجب فليس على المؤمن أن يحمل هم الإجابة ، فإذا ألهم الدعاء جاءت الإجابة معه

حـــــــيرة

ليست حياتنا على الأرض غير رحلة قصيرة وعجيبة ، إن متوسط عمر الإنسان فى العالم اليوم ستون سنة ، وفى بعض القرون المظلمة الوسطى فى أوربا كان متوسط عمر الإنسان (١٨) سنة ، وكان السر فى ذلك كثرة الأمراض وتخلف الطب واجتياح الطاعون لأوربا ، وفى عصر سيدنا نوح عليه السلام كان متوسط عمر الإنسان ألف سنة ، فقد لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما كما ورد فى سورة العنكبوت رغم كل شيء تبقى حياة الإنسان على الأرض فى دائرة الرحلات القصيرة العجيبة ، أما أن الحياة قصيرة فأمر لا يشك فيه أحد ، وأى انسان يتأمل ماضيه يخيل إليه أنه لم يعش غير ليلة واحدة ، وحتى المنكرون للقيامة والبعث والحساب يقرون يوم القيامة أنهم لم يلبثوا فى الدينا غير ساعة أو يوم ، وسواء كان الإنسان مؤمنا أو منكرا فإن الإحساس الداخلى بالعمر عادة يكون أصدق من مرور الأيام ، لأن الأيام لا تمر فى الحقيقة ، وانما تدور ، كل شيء فى الكون يدور ، تدور الأرض حول نفسها وحول الشمس ، وهذا الدوران ليس سوى زمن نسبى لمن يعيشون فى الأرض .

وصحيح أن الإنسان يعيش على الأرض ولكن عقله ليس

سجين التراب ، ومن هنا صار الزمن الحقيقى هو الزمن الداخلى أو إحساس المرء بالوقت ، وهذا هو الإحساس الحقيقى ، وهذا إحساس ممتد ، كان قبل أن يكون الجسد ، وسيكون بعد أن يفنى الجسد ، لأن الجسد ليس الا خيمة تسكن فيها الروح ساعة ، فاذا انهدمت الخيمة انطلقت الروح فى سفرها إلى الله .

والروح سر من أسرار الله تعالى ، وهى سر يملك المناعة ضد الموت أو ما نتصور أنه موت ، تأمل أحيانا بعض المعجزات التى تعيش معنا ولانجد الوقت لتأملها .

تأمل الحياة بمعنى حركة المخ ، هذا التيار الذى لاينقطع من الصور ، هذا النهر من الأضواء القديمة والموج والمراكب والصراع والحب والكراهية والحروب والسلام والزرع والقمر والنجوم .. حتى حين يحدق المرء فى سهوم أمامه ، ويسأله أحد « فيم يفكر؟» ويقول « فى شىء » .. حتى فى قلب « لاشىء » هذه يكون الإنسان منهمكا فى السباحة فى نهر الحياة وهو لا يدرى ..

وكثيرا ما تأمل الحكماء هدف الحياة وحكمتها .. وأمام آلاف من علامات الاستفهام قدمت أجوبة كثيرة كلها صحيحة ، لقد خلقنا الله ليحسن الينا بعبادته ، ويمجدنا بسجودنا له ، ويبتلينا لنعرف معادن القلوب .. هذا كله صحيح .. ولكن الصحيح أيضا أننا هنا لنتحير أمام بديع صنعه .. وكل غوص وراء المعنى يزيد المرء تحيرا ودهشة .

نـــور

أحيانا أتخيل شكل الحياة قبل اكتشاف الإضاءة بالكهرباء فى القرون الماضية أيام قناديل الزيت وأضواء الشموع ..

وأحيانا أتساءل : أكان مذاق الحياة أجمل يومئذ أم اليوم ؟

إن ضوء الكهرباء محدد وواضح وقاطع وأنت لا تكاد توقد ضوء الكهرباء فى حجرة حتى تقفز الاشياء فى الغرفة إلى مجال الرؤية فجأة .. وفى سرعة قفزها ما يجرح العين ويصدم المشاعر .. أما أنوار الشموع أو قناديل الزيت فتبرز لك الأشياء بالتدريج وبظلال تجعل للاشياء أكثر من امتداد وأكثر من عمق .. وهكذا ترسم الإضاءة بالشموع المكان لك بالتدريج فتراه وهو يتخلق خارجا من رحم الظلمة الى نور الحياة الجميل المهتز .. والإنسان مخلوق غير محدد .. وملامح وجهه من أكثر الأشياء غير المحددة فى العالم، والتعبير الذى يعكسه الوجه أو تعكسه العينان يختلف من لحظة إلى أخرى تبعا لحالة الانسان المعنوية وإحساسه بالنعيم او الشقاء .

إن ضوء الكهرباء يسقط على وجه الانسان مثلما يسقط

القناع على وجه الممثل يتسطح الوجه وتختفى تعبيراته وعذوبته ويقفز من غموض السر الى الفعل العلنى الصريح الواضح ، وقديما كان الناس يميزون الأشياء فى الظلمة ، ولكنهم اليوم يتخبطون فى الحجرة لو كان الضوء مطفأ ، وقديما كان الناس ينظرون فى وجوه بعضهم البعض على نور قناديل الزيت ، وهناك زيوت كثيرة تستخدم فى الإضاءة أرقاها جميعا هو زيت الحوت ، وهو زيت سائل لا تعرفه المعامل ، وهو فى حالته الخام يبدو عذبا كأنه زبدة الريف التى تجىء فى بدايات الربيع ، ويستخرج هذا الزيت بعد صيد الحيتان التى تقطع المحيطات والبحار آلاف المرات ، فتصور أنت نورا أضاء قيعان المحيطات وشاهد أسرارها قبل أن يرى أسرارك .. أى سر يكون فيه ؟

ولأن الناس كانوا يتعاملون فى نور الشموع أو المصابيح الزيتية كانوا أكثر رقة فى الملامح وعذوبة فى الوجوه .. أما اليوم فيستدعى الضوء القوى أقنعة لها كثافتها ، وأجمل اختبار للضوء أن تحدق فيه ، إذا استطعت كان مريحا ، وإن لم تستطع كان أقوى من قدرتك ..

ولا أحد يستطيع أن يحدق فى الشمس .. والشمس ضوء .. ولكن التحديق فى القمر متعة ، والقمر نور .. قال تعالى ﴿ **وجعلنا الشمس ضياء والقمر نورا** ﴾ ..

انظر الآن إلى بيتك وقلبك وقل لى:هل تضيئه أم تنيره ؟

إن هناك فرقا بين الضوء والنور ..

فى النور لطف وبشاشة وكرم ..

صـــــورة

حينما ينظر الإنسان نظرة يلتقط عقله صورة لوجه ما .. تنطبع الصورة فى خلايا الذهن ، تشهدها ملايين الصور السابقة التى التقطتها العينان خلال رحلة الحياة ، وتشهدها الصور الموروثة فى الجينات ، وهى صور عمرها ملايين السنين وعددها لا نهائى ..

تجتمع الصورة القديمة بالصورة الجديدة .. تمر الصورة الجديدة وهى خائفة مستوحشة أو تمر جزلة سعيدة .. المهم أنها تمر أمام أعين فاحصة تحدق فيها باهتمام ..

أيدور هنا حديث .. أم يتم الحديث عن طريق الموجات الروحية .. هذا سر آخر لا نعرف كيف تم ولكننا نعرف انه يتم ..

أخفيت عنا الكيفية وكشف القناع عن النتيجة .. وهذا تفسير قولك ..

☐ هذا الوجه يريحنى ..

أو : تفسير قولك .. هذا المكان يريحنى .. أو قولك : يخيل إلى أننى زرت هذا المكان من قبل ..

حكى لى أحد أصدقائى أنه كان فى رحلة إلى الهند .. قبل الرحلة راح يرسم مكانا يشبه المعبد ، كان يرسمه من الذاكرة .. شاهد المكان فى ذهنه قبل أن ينقله إلى الورق .. ورسم أكثر من صورة لهذا المكان الذى أحس أنه معبد .. ثم فوجىء برحيله إلى الهند ، كان يذهب للمرة الأولى وفى إحدى مقاطعات الهند مر القطار على معبد كالذى رسمه تماما .. وشاهد المعبد الحقيقى أمامه هناك ..

كيف رسمه قبل أن يراه ..

تفسير هذه الظاهرة يسير: إن الصور التى ورثها هذا الفنان كانت تنطوى على هذا المعبد ، احد أجداده القدامى زار المعبد أو عاش جواره ، ومات من نظر، ولكنه أورث نظرته لأبنائه وأبناء أبنائه ، وكل انسان منا يحمل ميراثا يعود الى آدم ، إن كل أبناء آدم يرثون – رغم تنائى المسافات – من بعضهم البعض ، وهذا تفسير قولك : أحس أننى زرت هذا المكان من قبل ، لقد زاره أحد أسلافك القدامى أو عاش فيه وورثت أنت صورة الزيارة .. ما أعظم ثراء الإنسان ..

إن الإنسان كنز من الصور .. وهى صور يقوم بعضها بوظيفة الحراسة وبعضها بدور الملوك وبعضها بدور الخدم ..

ومن المدهش أن يكون الإنسان بهذا الثراء ثم يحس بالوحدة ، هذا دليل على أن الظلام يولد من النور .. وأن الأضداد وجوه لشىء واحد ، وهو دليل على تركيب الإنسان البديع وتعقيده الرائع .

سـر الحيـاة

تنبثق الأرض من الأرض كرها وقسرا ثم تسير الأرض فوق الأرض تيها وكبرا وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل ، وتنشىء الأرض فى الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع ثم تمل الأرض أعمال الأرض فتنسج من هالات الأرض الأشباح والأوهام والأحلام .

ثم يراود نعاس الأرض أجفان الأرض فتنام نوما هادئا عميقا أبديا ..

ثم تنادى الأرض قائلة للأرض: أنا الرحم أنا الميلاد والقبر وسأبقى رحما وقبرا حتى تضمحل الكواكب وتتحول الشمس إلى رماد . كثيرا ما تأملت هذه الكلمات لجبران خليل جبران ، وكثيرا ما احسست أمامها بتتابع الصور ودورة الحياة . والحق أن الحياة سر عجيب .

وكلما تأمل الأنسان هذا السر وحدق فى وجهه زاد السر احتجابا عن العقل،والعقل قارب للنجاة فى محيط الحياة ولكنه ليس أداة لكشف سر الحياة .

إن العقل مسئول عن كل اكتشافات الإنسان وهو مسئول عن معرفة القوانين التى تحكم الحياة ، ولكن هذه القوانين شيء وسر الحياة ذاتها شيء آخر .

وتشبه الحياة قطعة من الماس لها آلاف الأوجه:كل وجه منها يعكس لونا يختلف عن اللون الذى يعكسه الوجه الآخر .. إن عالم الطبيعة مثلا لا يرى من الحياة إلا قوانين الطبيعة وعالم الكيمياء لا يهتم إلا بتركيب المواد وتفاعلها حين تلتقى ، والفلاح لا يعنيه من الحياة إلا أن تصح الأرض وتنضج البذور تحت الشمس ، والموسيقى لا ينصت إلا للنغم المتصاعد من الكون الداخلى فى مشاعره ، وكل واحد فيهم يرى الحياة من جانب ويتعامل معها من نفس الجانب .

وليس هناك جانب صحيح وجانب على خطأ،كل ألوان الماسة صحيحة وليس هناك لون أفضل من لون ، بل إن الماسة تزداد قيمة كلما تباينت وتناقضت ألوان الأسطح المختلفة فيها لكن قلب الماسة ذاته سر يمتنع على الناظر .. سر أصله التراب واعجب ما فى الحياة هو الانسان .. اليس هو الرحلة من التراب إلى الله .. أليست هذه عظمته الإنسانية وضعفه الإنسانى فى ذات الوقت ؟

لمــــاذا ؟

لماذا تتغير الفصول على الأرض فيشتد البرد فى فصل ، ثم يجىء الربيع ، ثم يتقدم الصيف ، ثم يستولى الخريف على الطبيعة ..

لماذا تتغير أحوال التراب الأرضى ذاته ، فنراه صخورا فى بعض البقاع ، ونراه رملا فى أمكنة أخرى ، ونراه طميا أسود يصلح للزراعة فى مناطق ثالثة ..

لما يتغير القمر ذاته ؟.. ولماذا رفضت (جولييت) أن يقسم (روميو) بالقمر .. هذا المخادع الذى يتغير وجهه كل ليلة ..

لماذا تتغير رائحة الهواء هى الأخرى ، فنراه فى بعض المناطق محملا برائحة زهور البرتقال أو المشمش أو زهور الياسمين أو الفل .. ولماذا لا تقول زهرة الفل أسرارها إلا فى أوقات محددة دون أوقات اخرى .. ؟

على مائدة العقل ألف لماذا ولماذا ؟

وهى كلها أسئلة بلا جواب ، وربما كان لها آلاف

الأجوبة العلمية التى تتحدث عن الظاهرة من الخارج دون أن تفشى أسرار « لماذا ؟ » بالتحديد .

هل بعد هذا كله تسألنى لماذا يتغير مزاج الإنسان من السرور إلى الحزن أو من الكآبة الى الفرح ؟ إن الإنسان أرض وسماء .. صنع الإنسان من عناصر الأرض ، ونفخ فيه الروح الإلهى ، ولقد وزع الله الأرزاق على الناس فتفاوتت ، ووزع عليهم العقول فتفاوتت ، ولكنه – سبحانه – أكرمهم جميعا بنفس الدرجة حين نفخ فيهم من روحه .

هنالك تمت المساواة الإنسانية ابتداء

ومن هنا يضىء داخل الإنسان أحيانا بهذه النار المقدسة التى آنسها موسى فى الوادى المقدس فى سيناء ..

ورغم هذا يتغير الإنسان ، يتقلب بين المشاعر المختلفة والأحاسيس المبهمة ، ولا غرابة فيما يحدث ، إن هناك دورات للفرح ودورات للحزن تتعاقب على الإنسان كما يتعاقب الشتاء والصيف على الطبيعة ، ومن هنا تتغير فى الإنسان أشياء ، ويتغير الإنسان نفسه ، ولكن شيئا مقدسا يظل داخله كما هو ... شيء لا يكبر ولا يصغر ، ولا يهرم ولا يشيخ ، لا يتبدل ولا يتحول .. شيء خالد . غامض وخفى ، ولكنه هو الشيء الوحيد الثابت الذى لا يدركه التغيير .

هذه الجزيرة المستقرة وسط مرعبات الحياة هى ملاذ الإنسان الأخير .

إنـــى أفتقـــدك

قالت له : إننى أفتقدك .. وتحركت مياه البحر وغطت الشاطىء .. لايفهم القمر سر حركة المد والجزر التى يحدثها فى الأمواج ، ولا البحر يعرف سر انجذابه إلى القمر ..

ورغم بقاء السر سرا يتأثر البحر بالقمر ويحلو للقمر أن يؤثر فى الأمواج مدا وجزرا ..

هذه العلاقة بين القمر والبحر .. تحت أى وصف يمكن إدراجها ؟ هل هى علاقة حب ؟ هل هى علاقة زوجية ؟ هل هى صداقة .. ؟ ام مجرد زمالة فى الخليقة حين كان البحر والقمر وبقية الكائنات دخانا ، لم يتشكل بعد فى صورته التى قضاها الأمر الإلهى .

أغلب ظنى أن بين القمر والبحر عشقا قديما .. ليسا زوجين لأنهما لايعيشان معا .. وليسا صديقين لأنهما لايتحدثان طويلا ، إنما هما عاشقان يرتعش كل واحد منهما لمرأى الآخر دون أن يقول شيئا وربما قال كلمة أو كلمتين ...

عادت تقول : إننى أفتقدك

من التى قالت ومن الذى استمع ؟.. هل قالت الأمواج للقمر إننى افتقدك .. أم قال القمر للبحر هذه العبارة ؟

هذا سر لايدريه سوى نجم بعيد هناك .. كان هو الشاهد الوحيد .. وهو شاهد صامت هو الآخر ..

المكان شاطىء بحر ممتد .. ليس على الشاطىء أحد ..

البحر يتنفس فتتحرك أمواجه والقمر يتناقص كل ليلة ، أو يزيد ، وموج البحر يمتد أو ينحسر ، لا يعرف البحر ماذا يحدث للقمر ، ولا يعرف القمر ماذا يحدث للبحر .. ولكن ظهور أحدهما فى سماء الآخر كفيل بتغيير كل شىء وارتعاش كل شىء .. هذه العلاقة الغامضةبين القمر والبحر من أعجب العلاقات التى يمتلىء بها الكون ، ولكنها ليست هى العلاقة الوحيدة .. ثمة علاقات أخرى ، لقد وقعت الأرض فى حب الشمس بناء على الأمر الإلهى ، ولهذا تدور الأرض حول نفسها كالعشاق ، ثم تدور فى مجال جاذبية الشمس حول الشمس .. فهل يدور المخلوق ـ حين يدور ـ حول مخلوق آخر إلا إذا كان يعشقه ...

كل ما فى الكون من كائنات واقع فى حب كائنات أخرى بالأمر الإلهّى وهذا ما يسميه العلماء بالقوانين الكونية ولكننى أفضل أن أطلق عليه وصف العشق الكونى لأن كل العلاقات تستمد وجودها وبقاءها واستمرارها من مركز واحد للحب .

.. الواحد الأحد سبحانه .

أحـــزان موجـــة

أحيانا يتصور الإنسان أن الحب وقف عليه وحده دون الكائنات ، ويتخيل أن الحيوان والنبات والجماد لاتعرف الحب ، وهذا غير صحيح ، فقد قرأت ذات يوم كتابة لموجة تكسرت على الرمال ، كانت الموجة تقول .

« يا نصفى المهاجر متى تعود .. حطمنى غيابك ولم أعد أجرؤ على التفكير فى عودتك واستقرارك داخلى ، كل ما أحلم به أن أراك ولو مرة واحدة فى الحلم . حتى الأحلام تستحيل هذه الأيام.

هل تذكرين لقاءنا منذ ملايين السنين ، لقد كنا موجة واحدة فى بحر واحد ، كنا نهتز معا ونترجرج معا ونعلو ونهبط ونتكسر على الصخور ونضحك فتبدو أسناننا البيضاء زبدا أبيض .. كانت هذه هى الجنة .. ثم وقع الفراق بيننا فجأة .. بدأت تتحولين من جزء من مياه البحر إلى سحاب ، بخرتك الشمس ياروحى فافترقنا .. صرت أنت سحابا تحول إلى أمطار ، ولم أزل جزءا من مياه البحر .. أعرف أننى مياه تمتلىء بالملح ، وأعرف أنك مياه حلوة .

لكن أصلنا واحد ياروحى .. لم أعد أحب الشمس حين فرقت بيننا .. كم بكيت دون صوت ودون دموع .. قبل

أن تذهبى كنت أسمع بغير أذن وأبصر دون عين وكان كل شيء على بكارته كما خلقه الله .. كانت الثلوج نقية والجبال صادقة والبحار بريئة والأنهار أطفالا لاتعرف سوى اللعب . كان الكون كله ربيعا بسبب ابتسامتك التى كانت تتسرب مثل ضوء قديم إلى نسيج أكثر الزوايا عتمة وظلاما ..

أنت لاتذكرين طفولتنا الكونية ..

لقد نسيت وسط زحام الحياة ماكان بيننا قبل الحياة ..

أنا أصفح عنك رغم كل شيء .. وإن كان كل شيء قد تغير بعد رحيلك .. تلوثت الثلوج وكذبت الجبال وآثمت البحار وشاخت الأنهار ولم تعد تعرف سوى الحزن .

لم أتوقف عن البكاء دون صوت منذ أن فقدتك . أحيانا أفكر أنك سعيدة لكونك جزءا من مياه النهر ، وربما تكونين قد نسيت – شأن بقية الخلائق – أصلك الملحى ، ربما تكونين سعيدة أو راضية أو حتى لامبالية ، ولكن فكرة ابتعادك عنى تجعلنى أشرب الملح مرتين ، مرة لى ومرة لك .. وتجعلنى الفكرة أحس أننى موجة تعسة فقدت نصفها بسبب الشمس .. وبسبب ابتعادك عنى لم أعد أعرف اللعب .. مازلت أتكسر على رمال الشاطىء لكن بإحساس من يؤدى -وهو مقهور- واجبا عليه أن يؤديه » ....

عادت الموجة إلى البحر ومسحت الشمس كتابتها فى ثوان .

البحـــر والمســـــتنقع

الإنسان « بحر » ..

يخلق الإنسان بحرا عظيما تصطخب أمواجه ولا تتوقف عن الحركة ، والبحر نقاء رائع لا نهاية له ، فهو رياح ربيعية منعشة ، واضطراب مسكر ، والبحر هو الكيان الوحيد النقى فى كيانات الكون ، وأى تلوث يلحق بالبحر أو يلقى فيه يتحول بفضل الملح الى نقاء ؛ والبحر سطح وقاع وتيارات قاع ومياه باردة ومياه دافئة ، وجزر مرجانية ولآلىء وذهب ونبل يرتطم أحيانا بالصخور ، وسفن غريقة وصراع بين أسماك القاع المظلم ..

هذا هو الإنسان ، أو هذا هو أصل الإنسان ..

وأحيانا يتحول البحر إلى مستنقع ، واحيانا يتحول إلى بحيرة ، وأقل المآسى ضررا أن يتحول البحر إلى بحيرة ، ولكن أقل المآسى ضررا هو الطريق الوبيل لأفدح المآسى .. ولابد من زمن طويل ومرير ليتحول البحر الى بحيرة ، ثم لابد من طريق آخر طويل ومرير لتتحول البحيرة الى مستنقع ..

والأصل فى البحر أنه مفتوح على بقية البحار ، أما

البحيرة فمغلقة لا تتصل بالبحار ، وحين ينغلق الإنسان يفقد قدرته على الامتداد والتجدد ، ثم تبدأ شمس الهموم الحارقة فى تجفيف البحيرة ، ويوما بعد يوم ، تقل حركة الموج ، وتهدأ حركة الرياح ولايبقى غير طين موحل ، فيه بقايا معلبات ونفايات وصاج مكسور وقطع طوب وزجاج مغبش ، وقطع من أمشاط ونقود نحاسية ، وتأتى السفن وترمي بقاياها فى المستنقع .. ويستمر التلوث ويطوى تاريخ البحر ، ويبدأ تاريخ المستنقع ..

متى يتحول الإنسان من « بحر » إلى « مستنقع » ... ؟

عندما ينحصر فى ذاته ، ولا يحزنه البؤس الإنسانى ، ولا تحركه النماذج الثائرة فى التاريخ ، حين يتوقف الإنسان عن الحب ، يتحول من بحر إلى مستنقع .. يركد ويلوثه الاعتياد اليومى ..

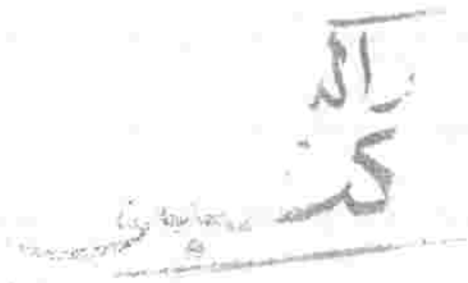
لا أتحدث عن حب النساء .. أتحدث عن حب أعلى درجة ..

أن يحب الإنسان فكرة ما .. أن يعشق نموذجا من نماذج الحنين البشرى للكمال .. أن يقع الإنسان فى هوى كرامة الحياة والأحياء .. أن يعتبر الإنسان نفسه مسئولا عن هموم أكبر من همومه .. أن يتخلى الإنسان عن ذاته ليصير ذاتا للآخرين .. أن يكتشف الإنسان معنى ابتسام البشر والحيوان والنبات والجماد ..

حين يموت هذا اللون من الحب فى قلوبنا ، يتحول الإنسان من « بحر » إلى « مستنقع » .. وليس فى المستنقعات لآلئ .. وإن كان فيها معلبات فارغة صدئة .. وبغير لآلىء البحار يموت النبل الداخلى للإنسان

وحين يموت هذا النبل يموت معنى الإنسان ..

وقانا الله وإياكم شر تحول البحار إلى مستنقعات .



الكـــروان

كثيرا ما يسمع الساهرون فى جوف الليل صوتا بالغ العذوبة والجمال هو صوت الكروان ، وكثيرا ما أدهشنى كم الجمال الذائب فى الصوت ، وما أكثر ما فكرت فى هذا الطائر الغريب الذى يبدو كأنه عاشق أو مجنون ،ما الذى يفعله بهذا السهر الليلى .. هل يحرس كنزا لا يعرف وجوده غيره . ؟ هل هو عاشق مهجور ينادى كروانة نائية ؟ هل يكتب على أوراق الشجر شيئا ، أم يقرأ من عروقها أسرار المياه وهى تصعد فى سيقان النبات .. حيرنى الكروان طويلا ، وكنت أتخيله طيرا جميلا .. أليس صوته جميلا ؟ ثم جمعتنى جلسة مع صديقى الفنان (رحمى) ، كنا نجلس فى غرفة مكتبى فى البيت أثناء الليل حين رن صوت الكروان ..

قلت لرحمى : هل سمعت الصوت .. كثيرا ماتخيلت شكل هذا الطير الجميل . لم أكد أنتهى من كلامى حتى ضحك (رحمى) وبدأ يحدثنى عن تصوره للكروان .. كان يسمع صوته كثيرا أثناء الليل ، واستولى عليه جمال الصوت فوقع فى حبه ، واستغرقه الحب واستولت عليه بداهته ، فبدأ يتخيل شكل الكروان ويستخدمه فى بعض أعماله الفنية ، ثم خطر له ذات يوم أن يرى كروانا حقيقيا .

واستغرق جهدا جهيدا ووقتا طويلا ليعرف أين يجد مجموعة من التجمعات للكروان .. أخيرا وجد ما يبحث عنه .. وكانت المفاجأة مرعبة .. اكتشف أن الكروان طائر شديد القبح ، إن رأسه يحمل عينين كعينى الثعبان ، أما جسده فيشبه جسد «أبوقردان» وهو يثنى قدميه حين يطير فيزيد شكله قبحا ، أما أبناؤه الصغار فيشبهون خرقا من التى يستخدمها «الميكانيكية» لمسح أيديهم من زيوت السيارات أو شحومها ..

باختصار .. كان ما رآه صديقى من الكروان صدمة لخياله عن الكروان،أدهشنى اكتشاف قبح الكروان .. كيف ينبع الجمال من القبح ، كيف يكون الصوت رائعا والشكل قبيحا .. ؟

جلست مع صديقى نفكر فى القضية الجديدة .. ميلاد الجمال من القبح أليس من المعجزات الإلهية أن تولد العذوبة من الغلظة ، وأن ينبع الجمال من القبح وأن تخرج الوردة

البيضاء من طين الأرض ؟ أليس هذا كله مدهشا ؟ رحنا نقلب القضية بيننا ونحن نفكر فيها ، ثم إنني قلت له : إن هذا الكروان يشبه الأدباء والفنانين عموما .. إنهم يقولون أجمل الكلام بينما تصرفاتهم أحيانا تشبه شكل الكروان .. وانحدرنا من الفلسفة إلى الفكاهة ، فقال لى : يجب أن نصدر تحذيرا للناس من الكروان .. ثم عدنا نتفلسف ونقول : أيكون معنى قبح الشكل وجمال المضمون إشارة تقول:«لا تنظر إلا من بعيد ، ولا تحدق ببصرك عن قرب ، وتسامح إذا سمعت عن الجمال ولا تفتش عن مصدره»..

وانقضت الليلة وختمها صوت الكروان كأنه يسخر من كل فلسفاتنا بشأنه .

الهروب إلى الصحراء

الكتاب مبلل بالدموع ..

هكذا أحسست وأنا أقلب صفحاته .. أما الكتاب فهو شعر الحب عند العرب ، وهو ليس كتابا واحدا وإنما هو مجموعة أشعارهم فى الحب،ولست أدرى ما الذى دفعنى إلى الرغبة فى قراءة الشعر العربى ، ولكننى أحس عندما تنعقد دوائر التجهم حول قلبى وتزيد كمية الأتربة المتصاعدة من الطريق ، وتتكاتف القسوة الصادرة من الإنسان تجاه الإنسان ، أحس عندئذ أننى فى حاجة إلى الهروب إلى الصحراء ، حيث تمتد الرمال إلى مالا نهاية ، و حيث ينعقد صفاء السماء مع حياد الأفق ، فيبدو كل شيء كأنه مولود منذ لحظات ولا يعرف سوى الصدق ..

ومن المدهش أن شعر الحب عند العرب يشق أنهاره من دموع المحبين، ولست أدرى السر فى تعاستهم فى الحب .. أكانوا بهذه الرقة التى تدفع العيون إلى البكاء ، أم كانت مجتمعاتهم أغبى من أن تحتضن قصص حبهم ..

ولما تلاقينـا على سفـح رامـة
وجدت بنان العامرية أحمرا
فقلت خضبت الكف بعد فراقنا
فقالت معاذ الله ذلك ما جرى
لكنني لـمـا رأيتـك راحـلا
بكيت دما حتى بللت به الثرى
مسحت بأطراف البنان مدامعى
فصار خضابا بالأكف كما ترى ..

أحس بالدهشة حين رآها تخضب كفيها ، ثم أفهمته أنها بكت دما ثم مسحت عينيها ..

أى صدق فى الصورة المتخيلة عن الحب ...

نفس الفكرة تتكرر فى معظم شعر الحب عند الشعراء العرب .. ها هو البهاء زهير يحدثنا أن حبيبته بكت حين علمت أنه راحل حتى نبتت الزهوز من بكائهما معا .

وقـائلـة لما أردت وداعها
حبيبي أحقا أنت بالبين فاجعى
تسلـم باليمنى على إشـارة
وتمسح باليسرى مجارى المدامع
وما برحـت تبكى وأبكى صبابـة
إلى أن تركنا الأرض ذات بدائع
ستصبـح تلك الأرض من عبراتنا
كثيرة خصب رائق النبت رائع

أيكون الحب جنونا؟.. يبدو ذلك والله أعلم .. إن مجنون ليلى يقسم لنا فى أشعاره أن الفرق بين ليلاه وبقية البشر هو الفرق بين ليلة القدر وليالى الزمان ..

ألا زعمت ليلى بأن لا أحبها
بلى والليالى العشر والشفع والوتر
بلى والذى لا يعلم الغيب غيره
بقدرته تجرى السفائن فى البحر
بلى والذى نادى من الطور عبده
وعظم أيام الذبيحة والنحر
لقد فضلت ليلى على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر

معنى الجنة

خلق الإنسان أصلا فى الجنة .. ثم ساقته أقدار الله تعالى إلى التجربة فهبط إلى الأرض ، وكان هبوطه منها هبوط كرامة لاهبوط إهانة ، لأن الله تعالى أنبأ الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة ، والخلافة فى الأرض كرامة للإنسان ، وصحيح أن هذه الكرامة جاءت بعد تجربة من تجارب العصيان لأمر الله تعالى ، ولكن التجربة لم تجرد الإنسان من كرامة الخلافة ، وإنما وضعت يده على مجموعة من الحقائق الجوهرية ، أهمها عداء الشيطان للإنسان واحتقاره له ، وأهمها أيضا هذا الإحساس الأول بمذاق الحياة فى الجنة ..

هبط آدم إلى الأرض ، وفى ذاكرته صورة للجنة ، وقيل فى الكتب القديمة إنه اشتاق وهو يموت إلى ثمار الجنة فأحضرت له الملائكة ما اشتاق إليه ، وهذه الخرافة التى ترد فى بعض الكتب الصفراء تعبير خطأ عن فكرة صحيحة ، إن شوق آدم إلى الجنة لم يرد عليه حين بدأ يموت ..

أغلب الظن أن شوقه إليها ظل مشتعلا فى قلبه طوال

حياته وقد ورث أبناء آدم شوق أبيهم إلى الجنة ، وانحدرت الصورة من ذهن آدم وحواء إلى أذهان الملايين من الأبناء والبنات ، وفى كل مرة كانت الصورة تنتقل كانت تفقد جزءا من الأصل ويزيد عليها أجزاء من الخيال .. ولهذا تحولت الجنة المفقودة الموعودة داخلنا إلى شيء آخر تماما ..

وصار لكل إنسان جنته الخاصة التى يئوب إليها بأحلامه حين يريد أن يهنأ .

فى تصورى الخاص أن الجنة هى الحب .

كان هناك رجل واحد هو آدم ، وامرأة واحدة هى حواء ، ورب واحد هو الله ، وفى مثل هذا الجو ، حيث يوجد رجل واحد وإمرأة واحدة وإله واحد ، لابد أن يكون هناك حب من لون يستحيل تصوره أو التعبير عنه .. ورغم امتلاء الدنيا بالناس فلم يزل الحب محتفظا بهذه الطبيعة ، رجل وامرأة وكون ليس فيه غيرهما من البشر ، ثم إله رحيم هو بارىء القلب ومحركه بالمشاعر ..

ولقد حدث بعد تجربة العصيان أن صدر الأمر الإلهى بهبوط آدم وحواء .. ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾، ونستطيع بمفهوم المخالفة أن نفهم معنى الجنة من هذه الآية ، إن الجنة هى ارتفاع عن عداوة البعض للبعض ، وهى عودة إلى براءة الحب القديم بين رجل وإمرأة لايعرفان الشر بعد ..

نســـاء ... ورجـــال

هناك نساء كالمدن .. ونساء كالصحراء ..

وهناك رجال كالبحار .. ورجال كالبحيرات المغلقة ..

والمرأة المدينة هى المرأة التى لاتكف عن العطاء ، سواء كانت البيوت مسدلة الستائر ، أو مفتوحة النوافذ .. وسواء كان هناك صخب أطفال يلعبون ، أو هدوء رجل يقرأ .. أما المرأة الصحراء فتمشى فى فيافيها فلا تقع عيناك على غير كثبان الرمال ، وكلما اشتد بك الظمأ أسرعت نحو هذا السراب الذى تتوهم أنه واحة ..

ويبتعد الوهم كلما اقتربت منه ..

والرجل البحر ، هو الرجل ذو السطح الهادىء ، الذى لايكدره شىء ، وإن ألقيت فيه آلاف الأكدار ، بل هو الصفاء الذى يصفو به الكدر ذاته .. والرجل البحر ، هو الذى ينطوى داخله على لؤلؤ ينام فى محارات الألم ، ويخفق فيه الموج – مدا وجزرا – مع حركة النجوم والقمر ..

أما الرجل البحيرة ، فهو الرجل الراكد المنبسط الآسن ، المتوقف وجوده على العمليات الفيزيقية ، فهو يأكل ويشرب ، وينام ويصحو ، ولكنه لا يحلم ..

وأحيانا يتزوج رجل كالبحر من امرأة كالصحراء .. أو تتزوج إمرأة كالمدينة من رجل كالبحيرة .

وتختلف النتائج فى كل مرة باختلاف الأشخاص ..

وحين يتزوج رجل كالبحر من امرأة كالصحراء ، يضيع ماء البحر فى الصحراء ويجف ، أو يظل البحر بحرا والصحراء صحراء ..

يظل هناك فاصل بين البحر والصحراء ..

أما المرأة المدينة حين تتزوج من رجل كالبحيرة ، فإن النتائج تكون توقف الحركة ، وغرق الطرقات ، ورشاش الماء الذى تقذفه عجلات السيارات المسرعة ..

والجنة على الأرض هى اقتران رجل كالبحر بامرأة كالمدينة ، فليس هناك أصفى من مدينة يرقد البحر عند مشارفها ، وتهب عليها الرياح البحرية من بوابات الأرض المتصلة بالسماء ..

والجحيم على الأرض هو اقتران امرأة كالصحراء برجل كالبحيرة المغلقة .. ولقد قيل فى حكمة الشعوب : « إن اختيار الرفيق يأتى قبل اختيار الطريق » ، ويصدق هذا المثل على العلاقات بين البشر أكثر مما يصدق على أى شيء آخر ..

ومن المدهش أن هناك عنصرا خارجيا إذا وجد أو غاب أثر وجوده أو غيبته على الموقف تماما ، أن الرجل البحر أو المرأة المدينة يتحولان إلى بحيرة وصحراء إذا فقدا الحب ، كما أن الرجل البحيرة والمرأة الصحراء يتحولان إلى العكس إذا عرفا الحب ..

مشكلة عويصة أشبه ما تكون بالسر .

تنويعات لونيـــة

أول ألوان الطيف هو اللون الأحمر ، نراه فى قوس قزح ، ونراه إذا تعرض شعاع الشمس لمنشور زجاجى واللون الأحمر لون قوى فيه عنف ، ولو كانت الألوان غابة فإن الأسد فيها هو اللون الأحمر .. واللون الأحمر لا يظهر فى السماء إلا مرة واحدة عند مغيب الشمس ، وهو يشبه هنا احمرار عيون العشاق من فرط السهاد أو فرط البعاد أو فرط البكاء .. واللون الأحمر هو لون الحريق ، والقرية التى تحترق ترفع عنها الضرائب ، وقلب العاشق إذا احترق يرفع عنه اللوم ، واللون الأحمر هو لون الدم والحروب والصراع ، وليست الحياة على الأرض سوى حروب تتخللها فترات من اللون الأخضر ، ولقد شاهد الملائكة دم الخلائق وهو يراق قبل خلق آدم فحدثوا الله تعالى ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾ .. علم الله تعالى حكمة وجود اللون الأحمر ، ولم يعرفها الملائكة

وظهر أول لون إنسانى أحمر فى الأرض من دم ابن آدم الذى قتله شقيقه .. من يومها صار اللون الأحمر علما على الغواية والجريمة ، ولكن الأرض تمتلىء بملايين الورد الأحمر البريئة وكل ذنبها أنها تعطر الجو ، كيف يكون اللون الأحمر علما على الغواية والطيبة ، ورمزا للجريمة والبراءة فى نفس

الوقت .. ألا يزيد هذا من تعقيد اللون الأحمر ، ويزيد شخصيته غموضا ؟ ويزيد سره امتناعا ؟ . وحين يهدى أحد العشاق وردة حمراء لمن يحب يعنى هذا أنه يقول – انظرى .. لقد أحللت لك دمى وأرقته على الأرض فشربته الوردة .

واللون الأحمر من الألوان الجريئة التى لا تخلو من قلة فى الحساسية ، تأمل نساء الغواية وهن يرتدين الألوان الحمراء للإعلان عن جمالهن ، ألا تحس بالفجاجة ؟ ، ثم تأمل مشتقات اللون الأحمر ستجد فيها رقيا فى الذوق ، فكيف ينبع الذوق من الفجاجة لو استعان ببعض الظلال ..

ثم تأمل استخدام الرسامين للون الأحمر ، إن (روبنز) يشعرك بالدم ينبض فى عروق لوحاته ، إن الدم الأحمر الغنى هو لون هذا الرسام ، وهو يفضل هذا اللون فى وقت الظهيرة ، وهناك (رينوار) ، إنه يفضل-مثل روبنز- ضوء الظهيرة فى الصيف ، وهو يصب على الأجسام المرسومة نوعا من استرخاء ضوء الشمس بكل قوته وامتلائه .. ولقد استخدم جورجونى و (فاتو) جوا يقترب من الليل .. فى الساعة التى ينام فيها السهد ويبدأ المغيب فى الحضور .. حيث الألوان هنا هى ألوان الشمس ساعة الاحتضار ..

ثمة لون أحمر ولكنه يختلف عن اللون الأحمر (لرينوار) أو (روبنز) .. وهكذا لاتنقضى أسرار اللون الأحمر . وهذا وحده لون واحد من ألوان الطيف .

الطــيف

يقول المحبون عادة عمن يحبون : كانت كالطيف ..
ما العمل إذا كان العاشق يحب الطيف أساسا ..؟
كان يسألنى أنا .. قلت له : أعد السؤال فإننى لا أفهمك .

قال : هل الحب سهل أم صعب ؟
قلت له : أعتقد أنه صعب .
قال : ليس الحب سهلا وليس صعبا ، الحب سهل ممتنع ، يخيل إليك أنك تستطيع أن تحب فتحب ، فإذا بك تكتشف بعد أن تحب أنك لاتحب ، لقد كنت تريد أو ترغب أو تتملك أو تستحوذ ، لكنك لم تكن تحب .. هل تعرف شروط الحب ؟

قلت له : إنك تسألنى لأنك تريد أن تتكلم .. قل لى شروط الحب .
قال : أن ترق حتى لا ترى نفسك ولايراك محبوبك .. وأن تبكى حتى تعود إلى المياه التى خلقت منها ، وأن تقول لمحبوبك يا أنا ، وأن تقول لنفسك يا هو ..

إذا وقع لك هذا اجتزت أول شرط من شروط الحب ، وبقى الشرط الثانى ..

قلت له : طبعا تتوقع أن أسألك عن الشرط الثانى

قال : سأحدثك ولو لم تسأل .. الشرط الثانى فى الحب أن ترى الطيف ..

قلت له : أرى ماذا ؟ قال .. ترى الطيف .. قلت له : أى طيف ؟

قال : الطيف الأبيض .. سأصفه لك .. له أجمل وجه فى الدنيا لأنه بلا ملامح ، جبينه هلال رمضان .. عيناه نجمتان تومضان وميضا كونيا ، ولأنه طيف فسوف يسألك سؤالا لن تسمع حروفه ، وسوف ترد عليه بالصمت ، ثم يختفى الطيف كما ظهر ، إذا وقع لك هذا فقد وقعت فى الحب ..

قلت لصديقى وأنا أتوجس خيفة : هل أنت مريض ؟ ..

قال : نعم .. إذا اعتبرت أن الحب مرض فإننى مريض . مرضى من مريضة الأجفان .. عللانى بذكرها عللانى ..

قلت له : ماذا حدث ؟ حدثنى بكل شىء ، وثق بأننى سأعالجك ما استطعت ..

قال : لا أريد أن أعالج .. إننى أضىء الآن من الداخل .. تغير كل شىء فى حياتى ، إن الحب جحيم يتطهر

فيه المرء من ذنوب حبه السابقة .. لقد أضاءت الشرارة المقدسة روحى ، لم أعد أستطيع أن أكذب ، لم أعد أستطيع أن أخدع ، لم أعد أستطيع أن أقسو .. فقدت سعادتى ولكننى استعدت البراءة ، ولدت أمس .. تصور نقاء من ولد بالأمس .. إننى أريد أن أملأ الكون بالجمال .. أريد أن أغنى أكتب الشعر .. كل هذا وقع بسبب رؤية الطيف .. إن العشاق يقولون : كانت كالطيف ، هل فهمت الآن مشكلتى ؟ .. لقد أحببت الطيف الذى يقسم به العشاق .. لم أحب امرأة ولكننى أحببت الطيف ورأيته .. ماذا قلت .. ؟

قلت له : أنت مريض جدا .

زهــــور الألــم .. !!

تظل أرواح الناس داخل أردية الجسد حتى يعشقوا ، فإذا أحبوا نبتت للروح أجنحة ، وانشقت جدران القلب ، وطار النسر الجميل نحو قمم الجبال البعيدة ..

وفى العشاق من تعود أرواحهم بعد رحلة الصعود ، وفيهم من تضيع أرواحهم هناك ، ويبدأ بحث الإنسان العاشق عن روحه ، ينادى روحه .. يرن الصوت وسط الجبال المتأبدة الموحشة ، ويجىء الرد نفس السؤال .. تحمل الرياح صدى الصوت وتضرب به صخور الجبال وتعيده إلى صاحبه .. وينغرس خنجر الوحشة فى القلب ، وتحتشد جيوش التعاسة ، ويبدأ حفل الحنين المهيب .. يجلس العاشق أمام مائدة الذكريات واجما صامتا لا يأكل ، تهب رياح خفيفة تحمل بعض عطرها السجين فتستيقظ ذاكرته .. يتلفت حوله .. يمد يده إلى الطعام فلا تصل يداه إليه .. لقد فكر أنه قد شبع

فجأة ، لم يعد جائعا ، وإنما يحس بالعطش ، يبكى شوبان فى كونشرتو البيانو الأول ، فيشرب العاشق دموع الموسيقا ويزيد إحساسه بالعطش ..

انتهى الأمر وصار الكون كله عدوا له .. كل نسمة هواء تذكره بشيء يذكره بها ، كل ورقة تسقط من شجرة تعيد إليه صورة قلبه وهو يسقط ، كل صوت يعيد إليه صوتها ، كل صمت يذكره بصمتها .. آه،أى صمت مسكر كان صمتها ؟..ويرفع الوقت فى يده سيف اللامعنى ويضرب به جذور الابتسام وعلاقات البهجة وتنفصل الخيوط بين النجوم والقمر والسحاب والبحر ، فيتوقف البحر عن تنفسه ويموت .. تجمدت الأمواج وثبتت كل موجة فى وضعها ، وضاع معنى الملح والحب

□ ماذا تفعل وحدك أمام البحر ... ؟

– أصلى صلاة قصيرة من الندم ..

□ لايكفى الندم .. واجبك أن **تتعذب قليلا** .. كم ضربة سوط تحتمل .. ؟

– أى عدد يعيدها إلى ..

ضحك ضميره لسذاجته ، أدار ظهره للبحر وسار نحو الصحراء ، يسير وراء شبح ابتسامة ، تحت شمس محرقة يستلقى جسد الضحية ، يقف الجلاد بالسوط ويضرب .. ماذا كان لون شعرها ؟ .. يرتفع السوط ويهوى ، ماذا كان نوع

عطرها ؟ .. ينشق اللحم عن جدول رفيع من الدم تنبت على شاطئيه زهور الألم ، كانت هناك شجرة ياسمين أمام البيت ، وقالت هي : إنها تريد شجرة ياسمين مثلها ، لماذا لم تزرع شجرة ياسمين ؟ لا تتوجع مثل ناى فصلوه عن شجرته فغنى للناس وهو ينتحب ، لا تبتئس فسوف نسمعك لحنا يسعدك ..

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور ... ؟

تتراءى صورتها وسط وسائد الألم فيضع رأسه عليها لينام ، يرتفع السوط ويهوى ليذكره أن النوم لم يعد صديقا .

رحلة قطار

تضغط الدنيا على حواس الإنسان وتدفعه دفعا إلى ملايين الأحاسيس والتقلبات ، وليست هناك نهاية لرغبات الإنسان فى الدنيا ولا نهاية لأطماعه ، إن صاحب الحذاء الواحد يطمع فى أن يكون صاحب حذاءين ، وصاحب المليون الواحد يطمع فى أن يكون صاحب مليونين ، وصاحب الملايين العشرة يطمع فى أن يكون صاحب عشرين ، وصاحب العشرين تعيس لأن هناك من يملك مائة ..

ويمضى الثور مغمض العينين يدور فى الساقية ، وهو يحلم بمذاق العشاء وراحة الدفء التى تنبعث من (راكية) النار .

وكلما صعد الإنسان سلم الحياة زادت رغباته وزادت نفقاته وزادت حاجاته ، أما حد الشبع فلا يعرفه الإنسان ..

لايشبع الطين مهما أمطرت عليه السماء .. إنه يمتص الماء ويريد مزيدا من الماء ..

والناس فى الدنيا يدورون فى سواقيهم الخاصة ، وكل

واحد فيهم يغنى أغنيته الخاصة ، ويحلم أحلامه الخاصة ..

وتختلف بصمات أصابع الناس وتختلف أحلامهم وهمومهم ، ولكنهم يشتركون فى أمر واحد ..

إنهم يسقطون ذات يوم من الإعياء بعد أن تدور الأرض وتدور الشمس وتدور الساقية ..

وأحيانا يغمض الإنسان عينيه ويموت ، دون أن يعرف جواب هذا السؤال القديم : لماذا جاء إلى هذه الحياة ؟

إن دوران الإنسان فى الساقية وسيلة للعشاء والدفء .. ولكنه ليس غاية الحياة ، وأخطر مآسى الإنسان أن يتصور الوسيلة هى الغاية ، وأن يستغرق فى تأمل المشاهد التى يمر عليها القطار المسرع فينسى أنه باق فى القطار فترة من الزمن .. وكثيرا ما يغلب الحمق على الإنسان فيبنى داخل القطار المسرع آلاف الأشياء المستقرة الثابتة التى لا يمكن بناؤها فى قطار ..

وليست حياة الإنسان سوى رحلة قطار يمضى مسرعا بأيام العمر والمشاهد والتجارب والمشاعر ثم يهدىء القطار من سرعته ويقف .. وينزل الإنسان تاركا كل ما بناه وأسسه وطعمه وشربه وارتداه ، لا يأخذ معه إلى المكان الجديد غير لباس التقوى ولحظات الخشوع فى الصلاة ، والخير الإنسانى الذى قام به مستهدفا وجه الله ..

كل ما عدا ذلك يظل فى القطار .. يستخدمه الآخرون ويستغرقون فيه وينسون حكمة الماضين ويدورون فى السواقى .

القطار الخطأ !!

تشبه الحياة رحلة فى قطار ، ويستقل الإنسان القطار عندما يولد ، ومن الثابت علميا أن الأطفال لايرون عند ميلادهم جيدا ، فى البداية يرون بقعا لونية وهالات من الضوء ، ووسط اللون والضوء يعشى البصر ، وإذن يمكن أن يستقل الإنسان القطار الخطأ وهو لايدرى .. وتضوى مصابيح القطار مثل علامات نارية والقطار يغوص فى جوف الليل ، وتمر الأيام ويجىء يوم ، وينظر الإنسان داخل نفسه وداخل القطار وخارجه ، فيرى نفسه غريبا يركب قطارا غريبا ، يجرى به وسط كون غريب ، ثمة فراغ لانهائى يفتقر إلى المعنى ، وتنخلع عن الأشياء معانيها كالأقنعة وتتبدى ملامح العبث ، البيت الذى أسسناه فوق الركام البركانى الهادىء ، العمل الذى ظننا أننا اخترناه وربطنا أنفسنا بالسلاسل فى ساقيته ، الأصدقاء الذين أحببناهم والأعداء الذين حاربناهم ، الأهل والأصدقاء والأولاد والزوجة .. فجأة يملؤنا إدراك أننا ركبنا القطار الخطأ .. ومع صدمة الاكتشاف ويقظة الوعى وأحزان الوحدة

يفكر الإنسان أن يقفز من القطار ، ويخرج إلى السهوب والحقول حيث لغة النجوم وأسرارها المهموسة ، ويبدو الليل خارج القطار مثل قفزة فى الظلام ، ونأنس لأنوار القطار ويدركنا التعقل ، ومع دخان السيجارة التى نشعلها يسوق منطق الأمان أسبابه ، إذا لم يكن هذا هو قطارنا فنحن على الأقل نسافر فيه ونركبه .. ركبناه وانتهى الأمر تأخر الوقت على الاختيار أو فات ، ونقول لأنفسنا : لننتظر ما تأتى به الأيام .. وهكذا نقف فى انتظار مالا ندريه ، والانتظار رعب رعيب إذا كان انتظارا لما لا نعرفه .

ماذا تفعل - لاقدر الله - إذا وقعت فى حال كهذه الحال ، ؟ ماذا تفعل إذا أحسست أنك تائه منذ ميلادك ؟

سأقول لك ماذا أفعل عندما يدركنى هذا الإحساس ؟ إننى أغير مكتبى فى البيت فلا يواجه الكتب ، وإنما يواجه شرفة تطل على السماء ، وأمد بصرى فى الفراغ الكونى الهائل وأحاول عد النجوم ، أعرف أنها مهمة صعبة ، ولكنها يمكن أن تشغل المرء حتى ينام ، وأحيانا تعابثنى نجمة صغيرة وشقية ، فتحدثنى أنها ركبت هى الأخرى القطار الخطأ ، وأنها لا تعرف ماذا تفعل ؟ ، وأضحك بينى وبين نفسى لتصورها الساذج ، ثم يتسلل إلىَّ الإحساس بأنها تسخر منى ، وأمد بصرى فى السماء مرة أخرى ، إن بلايين النجوم تجرى فى مداراتها دون حادث واحد أو خلل واحد ، حتى المدارات

الجديدة التى تخترقها كانت سطوراً فى كلمات المشيئة الإلهية .. إذا لم تكن هناك قطارات خطأ فى السماء فلماذا تكون فى الأرض ، إن أى ورقة تسقط من شجرة لاتسقط إلا لحكمة ، وربما خفيت هذه الحكمة عن الشجرة نفسها ، وربما كان خفاء الحكمة جزءا من ابتلاء الأقدار .. هناك تفكير خطأ وليس هناك قطار خطأ

البحـــر

سافرت إلى الإسكندرية يومين فاكتشفت هناك أن الشيخوخة هى زيادة الوزن الروحى للإنسان وعندما يزيد وزن الإنسان الروحى تثقل حركته ويزيد صمته ويتحول إلى شجرة والأشجار لا تستحم فى البحر .

وفى شبابى كنت أعشق البحر ، ومازلت أحس بمذاق قبلاته الملحية فى فمى وكنت لاأستطيع رؤية البحر دون أن أخلع كل متاعبى وألقى نفسى بين أمواجه .. وأنا أجيد السباحة وقد سبحت فى كثير من بحار الأرض ومحيطاتها ، وانكشف لى أن المخلوق الوحيد الذى يتمسك بحقيقة الحب هو البحر ، ألا تقول : إن الحب أن يحتويك المحب ، من الذى يلتف حولك ويحتويك بنفس الإحكام الذى تحتويك به المياه حين تنزل إلى البحر ؟.. يلتف البحر حولك ويتسلل إلى كل مسامك ويحيطك بأذرعته المائية ويهدهدك كأنه لم ينجب طفلا غيرك ..

وهدوء البحر حالة مزاجية مؤقتة وحين يثور البحر لا يمكن اعتراضه فى غضبه أو مناقشته عن ثورتـه ، إنه يغمر الأرض لاهثا ناخرا كأنه جواد حرب هائج مجنون تجندل عنه فارسه ..

وقد كدت أغرق مرتين أو ثلاث مرات وكنت فى كل مرة أحس أن البحر لن يغرقنى ، لأنه يدرى حقيقة إحساسى نحوه ، وكنت أقنع نفسى أن هذه الدوامة الثائرة أو هذا التيار الساحب ليس إلا صورتين من شعور عاشق غاضب .. ومن حق العاشق حين يغضب أن يضرب وجهك كُلّ مالديه من موج مالح ، وأن يريك كم يحبك .

وفى اللحظات الأخيرة كان البحر يسلمنى إلى الشاطىء وقد ظل إحساسى بالبحر قويا وظلت جاذبيته أمرا لا أستطيع مقاومته ، والحقيقة أننا لا نعيش على الأرض إنما نعيش فى جزر تحيطها المياه من كل جانب ، وكل قارات الكرة الأرضية لا تمثل غير جزء على خمسة أجزاء من المياه ... أخيرا تغير إحساسى بالبحر .. لم يعد حبى له عنيفا كما كان ، زاد عمق الحب وفقد حدته .. صرت أحبه على البعد .. وأنا جالس على الشاطىء .. لم أعد أرمى نفسى بين أحضانه كلما رأيته ..

وكثيرا ما أجلس أمام البحر صامتا أتأمل . ما أصدق كلمات (هرمان ملفل) تأملهما كليهما البحر والبر ، ألا ترى فيهما شبها غريبا لشىء مستقر فى نفسك ؟ .. مثلما يحف هذا

المحيط الهائل بهذا البر الأخضر ، كذلك تنطوى روح الإنسان على جزيرة حافلة بالسلام والبهجة ، جزيرة تحيطها مرعبات هذه الحياة الغامضة المروعة .

رعاك الله

لا تغادر تلك الجزيرة فإنك إن غادرتها فلن تعود إليها أبدا .

عســل الــروح

تختلف كلمة الحب فى اللغة العربية عنها فى اللغة الفرنسية عنها فى اللغة الروسية ولكن مشاعر الحب واحدة فى جميع اللغات ، ويأخذ التعبير البشرى شكلا من هذه الأشكال الثلاثة .. الكلمة .. والموسيقا .. والرقص ..

والكلمة تقتضى وجود لغة ، واللغات فى الأرض مئات ، وأعظم آداب الدنيا يظل سجين لغته حتي يترجم ، ثم يظل سجين الترجمة لايتجاوزها إلا إذا ترجم .. واللغات فى الأرض تولد وتموت كالإنسان سواء بسواء ، وقديما ولدت اللغة العبرية ثم ماتت حتى أعادت إسرائيل بعثها كلغة للحياة ، بعد أن كانت لغة للطقوس الدينية ..

وقديما ولدت اللغة الهيروغليفية ثم ماتت بموت هذه الحضارة .. وليست هناك لغة تستطيع أن تصارع الزمن والتاريخ كالموسيقا .. كما أن الموسيقا أيضا هى اللغة التى يستطيع الإنسان قراءتها بيسر دون حاجة إلى معرفة مفرداتها الهجائية .. ذلك أن الله خلق فى روح الإنسان مفردات الموسيقا ..

وليست روح الإنسان شيئا بسيطا ولا ساذجا ، إنما هى أكثر تعقيدا من الجسد آلاف المرات ، وهى مليئة بالأسرار

المجهولة التى تزيد كثيرا على أسرار الجسد ، ويحاول العلماء هذه الأيام علاج كثير من الأمراض بالموسيقا ، وقد نجحت التجارب فى شفاء بعض الأمراض النفسية والعضوية ، ومعظم الأمراض العضوية ترجع لأسباب نفسية ، ومن المعروف أن كيمياء الجسم تتغير بتغير مزاجه ، ولهذا نرى الوجوه حلوة حين تحب وقبيحة حين تكره ، كما نرى أيضا تعبيرا من الجلال الطيب فى وجوه المؤمنين ، كما نشهد غلظة الغباء الذى لايدرك قبحه فى وجوه الملحدين ، وقد ثبت بشكل علمى أن هناك علاقة بين التعاسة الإنسانية والمرض ، كما ثبت وجود علاقة بين البؤس الإنسانى والمرض ، ويبدو أن الموسيقا تلعب دورا فى إعادة ترتيب عناصر الروح التى بعثرتها التعاسة أو لخبطها البؤس ، وقد ثبت أيضا وجود علاقة بين الموسيقا وزيادة الإنتاج ، وتلجأ كثير من المصانع الأوربية إلى إذاعة الموسيقا أثناء عمل العمال ليزيد حماسهم وإنتاجهم ، كما اتضحت هذه الحقيقة بالنسبة للحيوان أيضا ، فإن الأبقار التى تستمع إلى الموسيقى تدر لبنا أكثر من غيرها ، وينطبق على الحيوان ما ينطبق على الإنسان ، والأصل أن الإنسان خلق فى الجنة حيث كان الانسجام قانونا حاكما ، وأى إخلال على الأرض بقانون الانسجام يدفع إلى المرض ، وتستطيع الموسيقا العظيمة أن تعيد ترتيب العناصر الروحية بحيث يتم التوازن والانسجام .

أى أن الموسيقا هى عسل الروح .. أى أن فيها ما فى العسل من شفاء لأجساد الناس .

والعـــصر .. !!

الفجر طفولة الإنسان ، والظهر شبابه ، والعصر كهولته التي تشي باقتراب الغروب ، وليس بعد الغروب سوى العشاء ونهاية اليوم وبداية النوم . والنوم موت صغير .. أو هو (بروفة) للموت الآخر .

﴿ والعصر.إن الإنسان لفي خسر.إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.﴾ .

تعرض الدكتور رشدى فكار المفكر الإسلامى لتفسير هذه السورة ، وكان تفسيره لها جديدا ..

إنه يرى أن العصر كلمته تنطبق على العصر الذى يعيش فيه الإنسان ، ويرى أنها كلمة تصلح للانطباق على فترة معينة فى عمر الإنسان ذاته .. بالرؤية الأولى يكون معنى الآيات أن الإنسان يخسر عصره لو لم يؤمن ويعمل الصالحات ويرتبط بالحق ويصبر ..

وبالرؤية الثانية يتغير معنى الآيات .. إن العصر هنا رمز فى تصوره لفترة الكهولة فى عمر الإنسان ، ما بعد الثلاثين

أو الأربعين .. ومثلما يمضى العصر بسرعة ويجيء الغروب ثم العشاء وينتهى اليوم ، كذلك يمضى عمر الإنسان بسرعة ، فإذا به يكتشف ذات يوم أنه فى طريقه إلى النهاية ..

وبهذا المعنى تكون الآيات مثل أجراس منبهة تدعو الإنسان إلى أن يدرك فى كهولته مالم يدركه من الحسنات فى شبابه ..

وتقسم الآيات بالعصر .. والعصر رمز إلى مرور الزمن وتوالى الأيام ، وهذه معجزة كونية كبرى ، وإذن يقسم الله تعالى بهذه المعجزة الكونية الكبرى،أن الإنسان يخرج من دنياه خاسرا ، ويستثنى القسم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والإيمان مفهوم ، وعمل الصالحات مرتبط بالإيمان ، فلا يعرف الإسلام إيمانا بلا عمل ، ولا يعرف عملا بلا إيمان ، يشبه الإيمان وعمل الصالحات جسدا وروحه .. الروح هى الإيمان والجسد هو العمل المرتبط بهذا الإيمان ..

ويعنى الإيمان الارتباط بالحق والتواصى به .. والحق ثقيل فى هذا العصر وفى كل عصر ، ولا يستطيع الإنسان أن يحمل الحق إلا إذا شرب من كئوس الصبر حتى النهاية ..

وبهذا يكون من معانى السورة هذه الدعوة إلى الإيمان .. وهى دعوة توجه إلى الذين يمرون بنهاية العصر وبداية الغروب ، وهى دعوة ما أجدرنا أن نلتفت إليها ، مادام ما بقى من العمر لم يعد مثلما فات منه ..

رحيل

أشرب هذه الأيام .. بكل مسام الروح والجسد .. آخر كئوس من خمر البرد الذى تحمله الأيام الشتائية وهى تمضى

وقد أوشكت كئوس البرد على النهاية .. لم يعد باقيا فى قاعها غير قطرات من عكارة البرد المختلطة بالحرارة ، وهو برد لايكاد يلوح بصفائه إلا فى الليل ، فى الساعات الأخيرة من الليل ..

وأنا أنتظر هذه الساعات كل يوم وأخرج إلى الشرفة ، وألقى بنفسى فى أحضان هذا الشعور المائى العذب ..

إننى اتفق تماما مع (هرمان ملفل) فى نفوره من الأرض ، بكل جوازاتها وجماركها وأسلاكها الشائكة وحدودها ، « لشد ما أحتقر الأرض ذات الحواجز والإتاوات والجوازات .. تلك الطرق العامة التى خددتها نعال العبودية وحوافرها وهكذا تحولت إلى الإعجاب بعظمة البحر الذى لاتنطبع فيه آثار » ..

ولعل الفرق بين الصيف والشتاء أنك تحس بالبحر فى الشتاء أكثر مما تحس به فى الصيف ، يمثل البحر بين يديك فى الشتاء ويغنيك عن التوجه إليه ، يمثل بالبرد والمطر ، والمطر هو رسالة البحر التى تكتبها الشمس على أمواجه بقلمها النارى ،

وفى الصيف يكف البحر عن رسائله ، ولهذا يذهب إليه الناس ، أما فى الشتاء فينتقل بنفسه إلى الناس .. انتهى الأمر ومسح الشتاء دموعه فى أغصان الأشجار العارية ولوح بمنديله من نافذة قطار يجرى ..

انتهى الشتاء ولست أعرف كيف أرثيه .. فهو يموت بنبل يجعل كلمات الرثاء تبدو لغوا أجوف ..

وبموت الشتاء يولد الصيف ..

والصيف فى مصر من الفصول الثقيلة ، وآية ثقله أنه يبتلع الربيع فى جوفه ويبتلع معه الخريف ، وأى ربيع تتوقع فى صحراء تنبسط على مدى الرؤية ويشقها خيط مائى حوله شريط من الخضرة ! إن كل مساحة الجزء الأخضر فى مصر لاتزيد على أربعة أجزاء من مائة جزء .. والبقية صحراء على الجانبين ..

والشتاء فى الصحراء محتمل .. ولكن الصيف فيها مروع ، وهو يزيد ترويعا حين تكون من سكان مدينة مكشوفة ، تخلو من نسبة الخضرة الواجبة وكم الأشجار المطلوب ..

إن سياط الشمس لاتجد مايحول بينها وبين رءوس الناس، إن مجرد التفكير فى الشهور الثمانية المقبلة ، يجعل الإنسان يمسح جدران كأس البرد ويرشف آخر ما بقى فيها من قطرات ..

تماما مثلما يستبقى العاشق من يحب لحظات رغم علمه أن الفراق آت بعد لحظات .

أغمض عينيك

أحيانا يحس الإنسان أنه مضىء من الداخل ، وأحيانا يحس أن نوره قد انطفأ نوره الداخلى ، وهذا النور لاعلاقة له بالليل ولا بالنهار ، لا علاقة له بالشمس ولا بالقمر .. نحن أمام نور طهور بكر لايستمد من الخلائق ولاينبع منها .

من أين يأتى هذا النور ؟

أحيانا تجلس مع إنسان متعلم ، إنسان له قيمته فى مجال حيوى من مجالات الحياة ، فتحس أن هذا الإنسان مظلم من الداخل .. وتحس أن له مجالا من الظلمة ينفثه حوله ، ثم تجلس مع إنسان فطرى لم يتعلم ولا يقرأ ولا يكتب ، فتحس أن داخله نورا خاصا يشعه على الحياة حوله ..

إذا كانت المعرفة ليست كافية وحدها لخلق هذا النور الداخلى ، فما الذى يخلقه ؟

إن المعرفة العلمية المادية لاتكفى إلا لصنع مصابيح الشوارع وإضاءتها ، أما النور الداخلى فلا يستمد إلا من المعرفة الروحية الخالصة ، معرفة ما يتجاوز العالم المادى للإنسان ...

ومن المدهش أن جزءا من عباقرة التاريخ الإنسانى كانوا مصابين بالعمى ، إن (هوميروس) كان أعمى ، وكان يرى بنور آخر غير نورنا ، وكثير من أفذاذ التاريخ كانوا يفتحون

عيونهم على الواقع الخارجى ثم يغمضون عيونهم ليروا بشكل أفضل ..

إن الشاعر الهندى (شانديداس) يقول « إن ليل العالم يبدو لى كالنهار ، أيها الحب ، إن نهار العالم هو ليلى » ..

ويقول القديس يوحنا الصوفى الأسبانى الكبير :

« لانور يهدينى سوى النور المضىء فى قلبى »

ولقد عاش فى عصر نابليون فيلسوف فرنسى اسمه (جوبير) . وقد كتب عبارة حكيمة تقول « أغمض عينيك تبصر »

وهذا مايراه الأستاذ (رينيه ويج) .. إنه يتصور أن برنامج الحياة الروحية هو القدرة على إغماض العيون ، والقدرة على النزول إلى أعماق الليل الباطن ؛ حتى يجد المرء فيه النور الضعيف أو الساطع الذى يحمله فى أعماقه . وإذا صح أن كل واحد منا يملك قبسا من هذا النور .. فإن مهمته هى الإبداع ، ومحاولة توصيل مايستطيع توصيله من هذا النور .. إلى الآخرين

إذا اتفقنا على أن هذا النور الداخلى يأتى من المعرفة الروحية والإيمان بالله .. فسوف نفهم الآية القرآنية المدهشة التى تتحدث عن حال المؤمنين وتقول : ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم** ﴾

وسوف نفهم لماذا يزداد إحساسنا بالظلام الداخلى كلما ارتعشت شموع الإيمان فى نفوسنا ، أو حاولت رياح الشر إطفاءها ..

متى يزيد هذا النور ومتى ينقص .. ؟

ارتعاشـــة بـــرد

الدنيا برد هذه الأيام ..

لا أعرف هل هو التقدم فى السن أم أن الشتاء بارد حقا .. أعتقد أن برد هذا الشتاء واضح ، إننى أرتدى فانلة من الصوف ،وبيجاما من الكستور المقلم (قطاع خاص) ، وأجلس فى غرفة مغلقة وقد انكمشت على نفسى من البرد ..

البرد مخلوق جامد ينقض عليك فتعلن عن هزيمتك بالارتعاش وتصطك أسنانك ويضيع وقار الإنسان .

هناك جهاز تكييف للهواء فى الغرفة ولكننى لاأستعمله لأننى فلاح أصيل ينفر من كل الأجهزة الحديثة ، ثم إن صوته بصراحة يشبه صوت وابور الطحين فى الأرياف ، واستمرار صوته يوحى لى بأن هناك انفجارا سيقع فى الجهاز وستتطاير الغرفة أشلاء وأنا معها ، ولذلك لا أفتح الجهاز إنما أجلس مرتعشا من البرد متفكراً فى هذه الليلة الليلاء . قلت لنفسى: لماذا لا تحاول ترشيد البرد ، أو إجراء حوار معه أثناء مسيرته التاريخية من ، تحت عقب الباب والشباك رأسا الى العظام ؟ .. وهكذا استوقفت موجة من الهواء البارد وقلت لها :لماذا .. ؟

قالت موجة البرد : لماذا إيه ؟!.

قلت لها : لماذا يضطهدنى البرد هذا العام ؟

ابتسمت موجة البرد عن أسنان . ثلجية بيضاء فارتعشت ..

قالت وهى تبتسم : نحن لا نضطهد أحدا ..

قلت للبرد : هل فعلت شيئا تعاقبوننى عليه ؟..

ابتسمت موجة البرد فازداد ارتعاشى .. وانصرفت من المكان وتركتنى لموجة أخرى من البرد .. وتذكرت أيام شبابى حين كنت أسير فى عز الشتاء بقميص مفتوح ..

هل سبب إحساسى بالبرد هو الحزن والوحدة .. هل تذكرون « قمر » ، الكلبة اللطيفة التى أنجبت ثمانية كلاب .. لقد ماتت قمر .. دافعت عن أبنائها الصغار ضد كلب عقور ، ومرضت يومين فلما نقلتها إلى مستشفى الحيوان لم تعش هناك غير يومين .. حزنت عليها حزنا لم أكن أتصور أننى قادر عليه ..

وافتقدتها بعد موتها كما افتقدت نباحها على رجال البوليس حين يمرون فى الشارع ..

ولقد قررت فى لحظة من لحظات الحزن الشتائى البارد أن أكتب عنها كتابا صغيرا أسميه « قمر » ، ومن المدهش أننى اكتشفت حين بدأت فى الكتاب أنه كتاب فكاهى .. ما أعجب هذه الحياة .. يولد الضحك من البكاء ويولد البكاء من الضحك وتدور الأشياء من النقيض إلى النقيض .. كما تدور الرياح الباردة من تحت عقب الباب .

مرحبا أيها الشتاء

يزحف الشتاء بنعومة تشبه نعومة حب جديد .. ورغم أن الإنسان يمر بتجربة الحب أكثر من مرة ، ورغم أنه يشهد أكثر من شتاء فى حياته ، فإن تيار الصور والأفكار التى تعبر العقل الإنسانى تختلف فى كل شتاء عن الشتاء الذى سبق ، فهل يتغير الإنسان كل عام ، أو كل عدة أشهر ، هل يصير إنسانا آخر ؟ أم أنه يولد فى صورة جديدة كل يوم رغم احتفاظه بغلافه القديم ؟ لا أعرف جواب هذه الأسئلة ، ولكن الشتاء عندى أسئلة كثيرة بلا جواب . وأول ما يلفت النظر فى الشتاء هذا العمق المتأبد المستعصى على التفسير ، وفى البرد سر نبيل عاصف يجبرك على إحناء رأسك والانكماش أمامه ، وأى إنسان يلقى البرد باستهانة يدفع الثمن غاليا من عينيه الحمراوين وأنفه الباكى وتنقله بين محطات العطس ، وفى سحائب الصيف لين ويسر ورعونة فهى كالضيف المجنون الذى يأكل ويقوم ، أما سحب الشتاء فتبدو مثل غرام مرهوب الجانب . والصيف «سبهللى» يكره القيود ويميل إلى التخفف كغانية تقف بقميص النوم

أما الشتاء فوقور حتى فى أنوثته ، وهو يتدثر جيدا ويخفى وجهه الشمسى وراء الغيوم ويجبر الناس جميعا على أن ترتعش وتتدثر ، وكل ما ينتمى إلى الشتاء له مذاقه المحدد ، إن البرتقال الشتوى يختلف عن البرتقال الصيفى المائع ، والحب فى الشتاء يختلف عن الحب الصيفى السريع ، الذى يتم نتيجة اتجاه العين إلى الجسد العارى على الشواطىء ، وفى الشتاء لاترى العين سوى العين ، ومن ثم يتم فى قصص الحب الشتائية أول اتصال بالروح لا بالجسد ..

والشتاء هو موسم البدايات ، إن المدارس والجامعات تدخل فيه ، ولهذا الدخول رهبة حالمة تتجاوب مع رهبة الشتاء المتجهم العابس .. وما أشد عذوبة الحلم حين تتجهم الوجوه حوله أو تزحف الغيوم فوقه ، ويرتبط الشتاء عادة بالنشاط رغم قسوة الجو ، وتكشف هذه القسوة عن جبلة الإنسان الذى يخاف أكثر مما يخشى،وكراهية الشتاء للفوضى معروفة ، ان الشتاء يخلى الشوارع والمقاهى والحدائق من روادها ، ويدفعهم دفعا لأحضان عائلاتهم ، ومن ثم يمكن القول : إن فى الشتاء أبوة صارمة ، ويحب الشتاء القراءة الجادة كما يحب الصيف قراءة التسلية الخفيفة ، ولهذا يسرع النضج إلى الشتاء ويبقى الصيف لهوا سادرا فى غيه ، والصيف من الفصول القليلة القيمة ، أما الشتاء فله وقاره واحترامه ، فهو مثل رجل فى الأربعينيات وقد بدأ الشيب يغزو رأسه ، وليس هناك شىء يثير المشاعر مثل رجل وقور يبكى ، وعندما يبكى الشتاء يحس

المرء أن الكون كله يشيح بوجهه ليتجنب لحظة الضعف الشتائية ، وأجمل ما فى الشتاء أنه يبكى لأسباب لا علاقة لها بخطاياه هو ، فليست للشتاء أى خطيئة ، يخطىء الصيف أحيانا ويصيب الربيع أحيانا ويتردد الخريف بين الخطأ والصواب ، ويغسل الشتاء خطايا الفصول كلها بدموعه البريئة .. مرحبا أيها الشتاء .

عـــودة الـــبرد

عاد البرد بكل جماله المرتعش وجلاله الثلجى الليلى المعطر .. كنت اعرف أنه سيعود فى الثلث الأخير من هذه الليلة .. لا اعرف أين يذهب بقية اليوم والليلة ، ولكننى كنت أعرف أنه سيعود .. ولقد عاد منتصرا مثل عاشق نبيل أعطى ظهره لرغباته ومضى يشق السهوب ممتطيا حصان إرادته الجامح .

وفى هذه الليلة أحسست أن البرد قد عاد من فرط حبى له .. وتساءلت :أيمكن أن يؤدى حب شيء إلى ملاذ هذا الشيء ؟ .. حيرتنى هذه الفكرة طويلا .

أحيانا يحس الإنسان أن داخله حبا أو حلما مثل سحابة توشك أن تمطر .. يعذب شيء ما فى الجو ، ويرق شيء ما فى القلب ، ويصير التنفس تقبيلا للغلاف الهوائى المحيط بالأرض ..

ويحس الإنسان أن داخله وجها ما .. لكنه بلا ملامح .. صورة ما .. ليست محددة .. بل مجرد خيوط وألوان مجردة .. ويشعر الإنسان بهذه الرغبة الحميمة فى أن يعانق الكون الذى يمتد إلى مالانهاية .. وهكذا يولد العشق فى قلب الإنسان قبل أن تولد صورة المعشوق .. رغم اعترافنا بهذا كله .. يظل السؤال قائما .

هل من القوانين الحتمية أن تولد صورة المحبوب إذا ولد الحب ؟ لست أعرف .. وما أكثر الأشياء التى لا أعرفها كلما تصورت أننى ازددت معرفة .

عاد البرد فارتميت فى أحضانه .. وقفت فى الشرفة فى الثلث الأخير من الليل بملابس الصيف ورحت أستقبل بأحضان مفتوحة ومسام متفتحة كل هبات البرد .. ان لسعة الحر فى الايام الاخيرة ايقظت شوقى للبرد . ولقد مضى الشتاء مثلما تمضى قصة حب كالأحلام ، وجاء الصيف فاذا هو يشبه امرأة مشاكسة تحل مشاكلها فى الأقسام والمحاكم .. وحين يعتاد المرء على عشرة الشتاء يعتاد رفقه الراق الرفيع ، ويصعب عليه التعامل مع السوقية والخشونة ، ولكن الرقى أقلية فى الدنيا وأقلية فى الفصول ، والسوقية هى الأغلبية فى هذا وذلك .. والصيف فى مصر ثمانية أشهر ، وقد انضوى الربيع فى مصر تحت لواء الصيف لضعف شخصيته ، كما استسلم الخريف لنفس السبب .. وهكذا لم يبق إلا الصيف والشتاء ، والصيف له حجم شتاءين ووزن جبل ساخن ينام فى فراشك .. كان البرد مشتاقا إلى بقدر شوقى اليه ، وعطست فاحسست أن العطس اعتراف بحب يستحيل إخفاؤه .. ظللت واقفا حتى تثلجت .. وحين أيقنت أن البرد قد تغلغل فى عظامى جيدا دخلت .. صحيح أننى مريض،ولكن مرضى من مريضة الأجفان . عللانى بذكرها عللانى .

رائحـــة الشـــتاء

يوشك قطار الصيف أن يمر بآخر عربات صهده الخانق .. ومن طيات العربة الصيفية الأخيرة تسربت رائحة شتائية تشبه عطرا أفلت من سجنه وجاء يعلن عن موعد الحبيبة ..

والشتاء من الفصول الحبيبة ..

والفرق بين الصيف والشتاء يشبه الفرق بين الزواج والحب العذرى ، إن حر الصيف يطبق على أنفاسك ويأخذ بتلابيبك ، ويوشك أن يعتصرك اعتصارا حتى تتصبب عرقا ، وتكاد أنفاسك تزهق ..

أما الشتاء فيحمل رائحة سحاب مازال يمسك دموعه ويخبئه وراء جفونه ، ولا تكاد تلوم السحاب أو تعاتبه حتى ينخرط فى البكاء ويبدأ المطر ..

والصيف لايبكى أبدا ، فكيف يحب الإنسان مخلوقا قاسيا لايعرف الدموع .. ثم إن الصيف رذيل وضاغط وفيه ما يحير الخلائق .. فأنت فى الشتاء تستطيع أن تزيد من ملابسك ..

وفى الصيف يتعرى البشر وتكتسى الأشجار ، وفى

الشتاء يكتسى البشر وتتعرى الأشجار ، وليس على الأشجار حرج من العرى ، أما البشر فيبدو عريهم سوقية ..

ومن هنا يبدو الشتاء أكثر احتراما وكبرياء ، ورغم عرى الصيف فإنه يخلو من الأنوثة ، أما الشتاء فيبدو بتدثره واختبائه وبكائه أقرب إلى الأنوثة ..

والناس تحب الشتاء مرتين ، مرة بسبب البرد ومرة أخرى بسبب المطر ، والمطر من أغرب الكائنات التى تنطوى على معجزة أفقدنا التكرار إحساسنا بها .. إن المطر يبدأ من البحار حين تتعرض لحرارة الشمس ... ويبدأ التحول الأول فى مياه البحر بالتبخر .. ولا تكاد الأمواج تتبخر حتى تحملها الرياح ..

وتتغير وظيفة الموج ، بعد أن كان يحمل السفن صارت الرياح تحمله ، ومثل رحلات السندباد القديمة لايعرف السحاب الى أين هو ذاهب ، ولايعرف أى مغامرات سيتعرض لها ، ولا يعرف أى أرض سيهبط إليها ، وتقع المفاجأة الأولى باصطدام الشحنات السالبة والموجبة فى السحاب ، ويبدأ سقوط المطر ، ويتحول البحر القديم إلى نهر جديد .. ويتم هذا كله دون تدخل البشر ورغم إرادته .. فنحن حتى اليوم لانملك الادعاء بأننا نتحكم فى حركة الرياح أو رحلات السحاب أو سقوط المطر .. وتمر المعجزة أمام عيوننا وهى مدثرة بالصمت والسر .. متى يجىء الشتاء ؟.

الكــاتب الأعظــم

نظرت بمحض المصادفة فى المرآة منذ يومين فطالعنى وجه رجل مهيب أشيب غاضب وأقرب الى الحزن ، ملأتنى الدهشة وخيل إلى أننى أعرف صاحب هذا الوجه ، فلما دققت فيه النظر عرفت نفسى فيه .

ارتفعت داخلى موجة من الفرح الكونى الغامض ، مادامت صورتى تظهر فى المرآة فهذا معناه أننى لم أزل حيا ، والحياة نعمة كبرى تفلت فرصة تأملها من المرء خلال السباق المحموم .

عدت أتامل صورة الرجل الماثل أمامى ، وحاولت أن أتتبع الكتابة التى رسمها الزمن على صفحة وجهه .. لم أستطع .

إننى أشتغل بالكتابة مرتين ، مرة فى الصحف ومرة أخرى فى صفحة الحياة الشخصية ، وكل إنسان فى الدنيا يكتب صفحة حياته ، وكل إنسان كاتب بهذا المعنى العام ، ولكن أعظم الكتاب حقا هو الزمن . إن أحدا منا لايرى قلما فى يد الزمن أو دواة ، ولكن أحدا منا لايفلت من هذه الخطوط التى يرسمها الزمن حول العينين والجبهة والفم ، منذ عشرين

سنة لم تكن هذه التجاعيد هناك ، ولكنها الآن موجودة ، تماما مثلما كان الليل سائدا فى الشعر ثم أذن الفجر بالظهور وتسلل اللون الرمادى وغلب ، والزمن رغم خفائه واستتاره موجود

صحيح أنه غير مرئى ولكنه موجود ، فلماذا يؤمن الناس بوجود الزمن وهم لايرونه ، ولا يؤمن البعض بوجود الله سبحانه ؛ لأنه يتعالى على الرؤية ..

ما أشد حمق النوع الإنسانى وغرور قلبه ، لقد أثار ميلاد عيسى اليهود لقسوة قلوبهم فلم يصدقوا أنه جاء من غير أب ، وأن الله نفخ فى مريم من روحه ، ألم يكن آدم أولى بالدهشة وقد جاء من غير أب أو أم ؟، إن أسرار الله فى توالى الأيام صفحة من أعجب صفحات الحياة .

وليس ميلاد الليل والنهار والفصول والنبات والحيوان والإنسان ومرور الزمن ، ليس هذا كله غير يد الزمن ، وهى تمضى بقلم المشيئة فتخط قدرها النافذ فى الحياة والأحياء ، نظرت فى وجه الحياة حولى فرأيت يد الزمان لا تكف عن الكتابة ، ولم أر مخلوقا ينجو منها ، الأشجار تتجعد والحديد يصدأ والخشب يتفتت والذهب ينهار ، لا شىء ينجو من الموت ، تختلف أعمار الخلائق فيعيش الحديد أكثر مما يعيش الخشب ، ويعيش الذهب عمرا أطول ولكنه بعد ثمانية آلاف عام يتحول إلى أصله الترابى ، لاشىء ينجو من الشيخوخة

والهِرَمْ واحد .. روح الانسان ، إن الإنسان يهرم ويكبر ويشيخ ويتغير وينحنى ولكن شيئا داخله يستعصى على هذا كله .. الروح .. تظل روح الإنسان رغم أعوامه الستين أو السبعين فى براءة طفل ولد منذ ساعة ..

هذه النفخة الإلَهِيّة لا يقع لها ما يقع للجسد الترابى من صروف .. تنجو الروح وحدها من يد الزمن ، وتظل هى سفينة نوح الطافية على حين يغرق الجسد الترابى يوما بعد يوم .

على غير موعد

كانت سحابة رمادية الأطراف بيضاء القلب تسبح فى السماء نحو موعد محدد مع جبل ، ثم صادفت هذه السحابة نجمة كانت تدور فى مدار غير مدارها ..

سألت النجمة : هل هذه منطقتك الخاصة .

قالت السحابة : نعم .. ولكن تفضلى بالدخول ..

إن السحاب كريم يعرف أن أحدا فى الكون لا يملك المكان ولا يملك الزمان . السحابة التى تحتل مكانا معينا وزمانا معينا مصيرها يوما إلى الذوبان فى دموع يسميها الناس بالمطر .. والنجمة التى تسبح فى مدار من مداراتها تعرف أن وجودها مؤقت ومدارها مؤقت ، ومصيرها يوما إلى الانطفاء والموت ..

لم تر السحابة بأسا فى أن تحتفظ داخلها بالنجمة التائهة .. انطوت السحابة على النجمة ودارتا معا فى الكون سبع دورات ، فى الدورة الثانية وقعت السحابة فى عشق النجمة ، ونسجت حولها هالة بيضاء واعتادت عليها ولم تعد تستطيع تصور ذاتها بغير النجمة ..

وفى الدورة السابعة تسربت النجمة خارجة من قلب السحابة ومضت ..

واكتشفت السحابة أنها أخف وزنا وأقدر على الطيران ، ولكنها فى ذات الوقت أميل إلى الحزن الشتائىّ البارد ..

ومضت السحابة ترتعش وحدها فى مدارها حتى كلت قدماها اللتان تشبهان ندف الثلج القطنية ، وراحت السحابة تتوقف عند سماء المدن وتبكى بحثا عن النجمة ...

فإذا طال وقوفها داخلها اليأس فمضت عن المدينة نحو مدينة أخرى ، وفى كل مرة كانت السحابة تفقد جزءا من وزنها .. ولاحظ السحاب كله أن هذه السحابة تشحب وتتناقص حتى لتكاد تضيع من فرط البكاء ..

ولم يكن هناك من يسأل: لماذا تبكى السحابة ؟ إن السحاب مخلوق للبكاء كما أن النجوم مخلوقة للاحتراق .. كانت السحابة تحتفظ بسرها المائىّ مثلما تخبئ النجمة سرها النارى .

وذات يوم ..وعلى غير موعد .. أو مصادفة ..أو هكذا توهمت السحابة .. فوجئت السحابة بأن النجمة تعود إليها .. فوجئت بها تدخل قلبها الأبيض ..

أليس مدهشا أن السحابة مازالت تتوقف عند سماء المدن وتبكى .. هى دموع الفرح النابعة من صلاة الشكر ولكنها فى نهاية الأمر دموع ، نفس النسبة الذائبة من الملح فيهما واحدة .

ودارا معا فى الكون بالفرح والحزن كما يدور الكون ذاته .

السحابة والشجرة

وقفت السحابة فوق الشجرة . سكنت الرياح فوقفت السحابة .. كان منظرها مريبا جميلا فرفعت الشجرة غصنا من أغصانها وتأملت السحابة بسرعة ..

ثم عادت الشجرة تخفض غصنها على استحياء ..

لم تلاحظ السحابة وجود الشجرة إلا حين اقتربت الشمس من المغيب ، واستطال ظل الشجرة وامتد ..

نقلت السحابة بصرها من الظل إلى الشجرة ..

كانت الشجرة حسناء

هناك أشجار بائسة تعسة وهناك أشجار جميلة تدرك بشكل ما أنها جميلة ..

لم تعجب السحابة فكرة إحساس الشجرة بجمالها ، قالت السحابة لنفسها : هذه شجرة مغرورة وغبية .. إنها

ليست مسئولة عن جمالها .. لقد خلقها الله جميلة .. ما فضلها فى ذلك ؟ مرت بخاطر السحابة ذكريات الأيام الخالية التى كانت فيها جزءا من البحر ، وتاقت السحابة إلى حركة الموج وتذكرت رحلتها الطويلة من البحر إلى الهواء إلى الجبال .. وبكت السحابة قليلا .. ثم مسحت عينيها فى الأفق ..

تصورت الشجرة بغرورها أن السحابة تبكى من أجلها هى ، ووقعت الشجرة فى حب السحابة .. تحولت الشجرة إلى عاشقة شاعرة ، قالت الشجرة شعرها الجميل مجسدا فى هذه الوريقات الخضراء التى تنبت من أغصانها ..

لاحظت السحابة أن الشجرة تلد أوراقا خضراء جديدة ، أدركت أن هذا من المطر ، قررت أن تعاون الشجرة على مزيد من الخضرة ، بدأت تمطر ..

اغتسلت الشجرة العارية تحت مياه المطر ، وزاد حبها للسحابة .. ثم هبت الريح فتحركت السحابة تمطر أرضا ثانية وأشجارا أخرى ..

تأملت الشجرة هذا الرحيل المفاجىء بغضب وكبرياء وصمت .. لم تتكلم الشجرة .. ولكنها أصيبت بالكآبة .. وقررت أن السحابة لم تكن تحبها .. ابتعدت السحابة أكثر حتى اختفت من زاوية الرؤية .. زاد حزن الشجرة وأحست بالفرح فجأة حين سرى فى جذعها سؤال : إذا كانت السحابة لا تحبنى فلماذا غازلتنى بالمطر . ؟

ياسمين

وسط جميع الزهور التى خلقها الله تعالى فى الأرض ، ليس هناك أرق من زهرة الياسمين .. وتبدو الزهرة بشحوبها الثلجى مثل عاشقة تقف أمام الشاطىء ، وتنتظر سفينة حدثتها نفسها أنها لن تصل .

وينحدر الندى فوق أوراق الزهرة ويسيل على الغصن ، ولا يحس البحر أو الشاطىء أو السحاب أنها تبكى .

لا تريد الزهرة أن تعلن حزنها للكون ، لاتريد أن تؤثر فى مزاج البحر أو السحب ، تمنعها الرقة أن تضيف إلى الكون أحزانا جديدة .

وليست زهرة الياسمين رقيقة فحسب ، إنما هى زهرة طيبة ووديعة ، ليست متكبرة مثل زهرة الفل الأرستقراطية ، وليست متبرجة مثل زهرة القرنفل الحمراء وليست مستعصية تحتاج إلى بستانى وحديقة ، إنما هى زهرة وديعة يمكن زراعتها فى حديقة المنزل أو شرفة البيت ..

وأجمل ما فى زهرة الياسمين هو الكرم الخالى من الشوك والمشقة ..

إن الورد البلدى مثلا يحتاج إلى ان تنحنى على الوردة لتستنشق رائحة عطرها ، أما شجرة الياسمين فترسل إليك عطرها على البعد ، ولا تحتاج منك إلى انحناء أو اقتراب ، وبهذا

يكون عطر زهرة الياسمين أكثر العطور حبا للحرية وكراهية للسجون .

وربما كان هذا الكرم فى العطاء ، وعشق الحرية هما المسئولان عن قصر عمرها ، ومثل عشاق الحرية الكرام تموت الزهرة فى ريعان شبابها عادة ، ويختلف عطر زهرة الياسمين اختلافا كاملا وهو حى عنه ، بعد أن يموت ويعبأ فى زجاجات ، يزيد جمالا بعد أن يموت ، ولكنه يفقد رقته ولمسته الأثيرية العذبة ، حتى يبدو كأن روح زهرة الياسمين مرتبطة بعبيرها ارتباط الروح بالجسد ..

ورغم شحوب عطر زهرة الياسمين .. فإن فى كل زهرة قدرا من العبير يكفى لإقناع المرء بوجود ملايين المعانى الرائعة للكون .

وقديما كانت المدن المصرية تتميز بأن معظم حدائق البيوت فيها تضم أشجارا للياسمين ، وفى ساعات الغروب كانت الزهرة تستيقظ من نومها وتبدأ فى التنهد ، وتملأ جو الشوارع والأحياء بهذا العطر الوديع الشاحب الأبيض ، الذى يذكرك بطيبة الأخت أو الأم أو الزوجة ..

لا أعرف لماذا تخلينا عن اهتمامنا بأشجار الياسمين ..

لا أعرف لماذا لا نعود إلى هذه الزهرة الوديعة التى تبدو مثل ابتسامة كونية مدهشة ..

رغم أحزانها الداخلية التى تخفيها .

زهـــرة الليلك

تصور شحوب عاشق جرفته موجة الصدق فاتصل قلبه بحركة القمر والبحار ، وتصور هذه العذوبة التى تكون لحقول المشمش حين تزهر أشجارها ويتضوع الهواء بالعطر الناعم ..

هذا هو شحوب زهرة الليلك .. وهذه عذوبتها ..

وزهرة الليلك معجزة من معجزات الكون المرئى ، وهى أيضا معجزة تومىء لظلال غامضة من سحر الكون الخفى ..

هى زهرة أجمل ما فيها أنها لا تدرك جمالها .. لم تتوقف يوما لترقب نفسها فى المرآة .. حتى مرآة السماء التى تمتد فوق أوراقها لم تكن تنظر إليها . وجهل الكائن بجماله – رغم جماله – هو صورة من صور الجمال المدهش .. أما تواضع زهرة الليلك فيكاد يكون عطرا يضاف لعطرها الغامض .. ولمعظم الزهور قصص ترويها الشعوب ، أما قصة زهرة الليلك فأقرب إلى الحزن .

يقال : إن أحد أمراء الإنجليز أحب فتاة ثم هجرها ، وأحست الفتاة أنها وحدها فى العالم فانزوت عن الناس وامتنعت عن الطعام والشراب حتى ماتت ، وتبرأ منها أهلها فدفنت فى قبر مجهول ، أما صديقاتها فكن يعرفن أنها تعرضت للخيانة ولكنها بقيت على الوفاء ، وهكذا رحن يزرعن زهور الليلك الزرقاء حول قبرها ..

وفى الصباح ، فوجىء زوارها بأن كل الزهور الزرقاء قد تحولت إلى اللون الأبيض الناصع .. واعتبروا ذلك دليلا على براءتها وهرعوا إلى الكنيسة وإلى أهلها ، وأطمأن الجميع إلى طهارتها حينما زرعوا بأنفسهم زهور الليلك الزرقاء ووجدوها بيضاء فى الصباح ..

وهكذا شهدت زهور الليلك على براءة المحب ولو كان موضع خيانة . وصارت أزهار الليلك رمزا للحنث بوعود الحب ، ورمزا للبراءة التى لا تعرف المعاملة بالمثل ..

أو صارت زهرة الليلك رمزا لنبل الحب الذى يتحول من الزرقة إلى البياض ، ويرد بالصدق على الكذب ، وبالبراءة على الخيانة ، وبالحب على كل المشاعر الأدنى ..

وفى لحظات الغروب .. تبدو زهرة الليلك فى الجبال البعيدة مثل ابتسامة كونية غامضة وسط تجهم الصخور .. تبدو مثل حب يولد بإحساس أنه لن يموت .

حلم يقظة

تجمعت وراء الباب مثل هالة من ضوء فضى شاحب ، وتحركت الرياح البحرية فانفتح الباب وانسابت هى ..

سارت رشيقة كسحابة لا تمس قدماها الأرض ، سحابة كانت فى الأصل ندى يتجمع فوق زهور الفل ، لم تستطع السحابة أن تتخلص من العطر فأفشى العطر سرها ..

لم تكد تدخل حتى تغير المكان ..

قبل وجودها كانت هناك دنيا من التراب والصراع ودخان السجاير وبخار القهوة والثرثرات والهراء ، بعد دخولها ذابت كل الأشياء وصارت هى وحدها الكائنة ..

هى هى ولا شيء غيرها ..

صمت كل شيء .. وتقطعت أنفاس الزمان والمكان والمكان والفراغ .. حكم جمالها المكان بعد ثوان من وجودها فيه ..

« كانت مرهبة كجيش بألوية » .. هذه عبارة التوراة عنها قبل أن تولد بأزمنة .. إن جلالا يطل من وجهها ، ونورا يتألق فى جبهتها ، لون من ألوان النور الداخلى الذى لا تمكن رؤيته إلا إذا أغمضت عينيك .. ونظرت .. الوجه مغسول بماء مبارك ..هو ماء زمزم القديم حين حفرت البئر أول مرة ..

العينان الوادعتان تعكسان إحساس الطير الذى ذبحه أبو الأنبياء ثم استدعاه بأمر الله من الموت فجاءه سعيا .

أجفل الطير حين رأى النصل ثم شهق بالفرحة حين ردت إليه الحياة .. كانت محجبة شأنها شأن الحقيقة ..

ولم يعرف أحد من أين جاءت .. إن ملابسها ووجهها فى نقاء الثلوج العذراء التى تستعصى على النسور وتستعصى على الذوبان فى الشمس .. والطريق مترب يمتلىء بهراء العالم المادى وأدرانه ، فكيف سافرت فيه دون أن يبدو عليها أثر التراب والسفر .

فهمت الآن مشهد دخول يوسف على النسوة أثناء مأدبة الغواية الشهيرة ، لقد ساد صمت ، وبدأت النساء يقطعن أيديهن ..

كان يوسف جميلا كالحقيقة ..

وكانت هى الأخرى جميلة كالحقيقة ، فلتقطع إذن أيدى الغواية بالسكين حين تظهر الحقيقة .. هذا ناموس أزلى قديم ..

جلست فلم تقل شيئا .. كانت تتنفس فحسب ..

نظرت أمامها للصحراء وفكرت أن تبتسم ..

لم تكد تفعل حتي أمطرت السماء واخضرت الأرض

وتحول الخلاء إلى خضرة زرقاء وأنهار من الخمر والعسل ..

نعم .. يكفى أن تبتسم الحقيقة أو تفكر فى الابتسام حتى تولد الجنة .. ويتضوع الجو بالأريج المسكر .

الغـــــيرة

الغيرة غضب يحركه الخوف على فقد شيء نحبه ، والغيرة معنى عميق لا يعرف أكثر الناس إلا سطحه البادى ، وأبسط معانى الغيرة أن تغار المرأة على رجلها أو يغار الرجل على امرأته ، وهذه هى الغيرة البدائية أو الغريزية ، وفى هذه الغيرة شيء من عدم الثقة فى النفس وفى الطرف الآخر ، كما أن فيها شيئا من تصور الحب كباب من أبواب الملكية ، وتصور الشخص الآخر كشيء يمكن تملكه .

وهذا خطأ يقع فيه كثير من الناس ، إنهم يتصورون أنه يمكن تملك الحبيب ، ونحن نستطيع أن نتملك الأشياء كالمنازل والسيارات والملابس ، أما الإنسان فلا يمكن تملكه ، إنما يمكن مشاركته

وهناك فرق بين المشاركة الوجدانية والتملك

إن الإنسان أصلا مملوك لله ، وأى ملكية تقع على الإنسان من إنسان هى وهم إذا لم تصح ، وهى دمار إذا صحت

بل إن فكرة الملكية – فى جوهرها – وهم كبير
إن الإنسان يموت ، والموت ينهى جميع أنواع الملكيات المادية ، ولا أحد يحمل معه من الدنيا شيئا ماديا ، لا الأباطرة ولا الملوك ولا المليونيرات ولا أحد.يجىء الناس إلى الدنيا عرايا ويخرجون منها كما جاءوا ، الشىء الوحيد الذى يمكن حمله من الدنيا هو القيم المعنوية أو العمل الصالح .

فلننظر الآن فى غيرة الإنسان ..
سنلاحظ أن الناس يغارون على الأشياء المادية جميعا ويحرصون عليها جميعا ، ويخافون من فقدها جميعا ، وأقل القليل من يغار على القيم المعنوية .. بينما الغيرة الأولى غيرة على الأشياء والغيرة الأخيرة غيرة على الله عز وجل ..
كيف يغار الإنسان على الله تعالى ؟
يخاف أن يفقد رضاه إن أغضبه ، ويخاف أن يبتعد عنه إن أساء ، ويخاف أن يبارزه الله تعالى بالمكر إن بارزه بالمعاصى ، ويخاف ألا يحمل الأمانة التى اشفقت منها عناصر الكون وحملها الإنسان ..
هذه الغيرة هى وحدها الغيرة الحقيقية ، وغيرها من أنواع الغيرة قتال على قطعة من العظم ، .. شىء لا يستحق عناء الخوف أو عناء الغضب ..
كم عدد الذين يغارون على الله عز وجل .. كم عدد الذين يغارون على شريعته .. على المسلمين .. على المضطهدين فى

الأرض .. على المستضعفين من النساء والرجال والولدان .. كم عدد الذين يقفون فى الدنيا جوار الله ؟

ستقول لى : قليل .. وسأقول لك إنهم أقل من القليل ..

نحن نسرع كالخيل إذا تعلق الأمر بالمصلحة المادية ، وننسى أن هذه المصلحة أقل المصالح وأدناها ..

انظر فى نفسك وقل لى نوع غيرتك فى الدنيا أقل لك من أنت .

فى الضـــحك والبـــكاء

فى السطر الواحد من كتاب « الحياة » ، تجد الضحكة تجاور الدمعة ، وربما كان الشارع يعلق زينات فرح فى بدايته ، ويدق صيوان عزاء فى نهايته ، والضحك والبكاء معجزتان من معجزات الله فى خليقته المسماة بالإنسان ، ولهذا السبب يورد القرآن الكريم فى سورة النجم قوله تعالى : ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى** ﴾ ... ونحن نضحك آلاف المرات فى حياتنا ، ونبكى مئات المرات ، أو نفعل العكس ، فلا ندرى ماسر الضحك .. ولا ندرك سر البكاء .. نعرف السبب ولا ندرى السر ، نعرف أن هذا يضحكنا ، وأن هذا يبكينا ، نرصد الظاهرة من الخارج ، ونحلل أسبابها ، ولكننا لا نعرف كنه سرها الداخلى .. ولو نظرنا إلى الضحك والبكاء عند الشعوب ، فسوف نجد خلافات بينة ، فما يضحك شعبا ويدفعه إلى الرقص ، يبكى شعبا آخر ، إن الموت فى مصر يعنى البكاء والوقار ، أما فى غرب أفريقيا فيدور الرقص فى جنازات الموتى ، تعبير عن فرحهم براحة المتوفى وانتقاله لعالم الأجداد المقدس ..

وما يضحك المصريين فى المسرح الفكاهى من حركات وإشارات ، لايضحك الشعب الأوربى أو يجعله حتى يبتسم ..

وهكذا تختلف تقاليد الضحك والبكاء من شعب إلى شعب ، ومن ثقافة إلى ثقافة ، ومن حضارة إلى حضارة ، ويبقى بعد هذا الاختلاف كله رصد الظاهرة الأصلية فى الضحك والبكاء .. وهى ظاهرة عجيبة ، فجميع المخلوقات الأخرى لا تضحك ولا تبكى، إن الحيوان لايضحك ، يهز الكلب ذيله ، ويهز جسده ، ويتواثب حول صاحبه ، ولكنه لا يضحك .. وربما احتضن الحيوان قدمى صاحبه ، ولعق حذاءه تعبيرا عن سروره ، ولكن الحيوان لا يضحك ..

أيضا لا يبكى الحيوان ، تدمع عين الحمار إذا دخلت الأتربة فيها ، لوجود غدة دمعية ، ولكن الحمار لا يبكى مهما اشتدت أوجاعه ، قد ينهق أو يحرن أو يرفس صاحبه ، ولكنه لا يبكى .. وفى عالم النبات نلاحظ أن النبات لا يضحك ولايبكى ..

وفى عالم الجماد ، نلاحظ أن الحجارة والمعادن تظل جامدة لا تضحك ولا تبكى .. ليس هناك مخلوق يعرف الضحك والبكاء غير الإنسان .. هذه ميزة خاصة شاءت إرادة الله ، أن تكون وقفا على الإنسان وحده .. ولأن هذه الميزة تدخل فى باب المعجزات والعجائب ، اشار اليها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الأخير للبشر .. وربط ظاهرة الضحك والبكاء

وردها إلى مطلق مشيئته ، فقال : ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى** ﴾ .. فهو سبحانه الذى يمسك بيد رحمته أسباب الضحك وموجبات البكاء ، وهو المهيمن على سر المواقف التى تدفع إلى الضحك أو المآسى التى تدفع للبكاء وهو ، سبحانه ، العليم بسر الضحك الداخلى ، وسر البكاء ..

لو ذكرنا الله ونحن نضحك وحمدناه .. ولو ذكرنا الله ونحن نبكى ورجوناه ، لو فعلنا هذا وذاك ، فقد بارك الله لنا فى الضحك ، وجفف لنا منابع البكاء أو أعاننا على احتماله .

تأمـــلات شتائيـــة

الرجل رياح تطوف حول الأرض وتدور ، والمرأة بذور تلقى فى الأرض فتخرج منها الثمار ، والحب عند الرجل اكتشاف لا تتوقف فيه الحركة ، والحب عند المرأة ميناء ترسو فيه وتحس بالراحة . وعلى حين تميل المرأة إلى الاستقرار والإنجاب ، نرى الرجل يتوق إلى الرحيل والتجربة والسندباد البحرى كان رجلا ولم يكن امرأة .. ولو كان امرأة لتزوج فى أول ميناء واستقر به المقام ، وأنجب لنا أو أنجبت لنا نصف دستة من العيال ..

نصف دستة من العيال مقابل أن تنقص الحياة رحلات السندباد الست ..

وعلى حين تحقق المرأة غريزة الحياة فى الاستمرار ، يحقق الرجل هدف الحياة فى الاكتشاف ..

وليس هناك تعارض بين الاكتشاف والاستمرار .. بل إن الصراع بينهما جزء أساسى من نسيج الحياة ..

ولو تصورنا الحياة رجالا فقط لكانت الحياة أمرا لا يطاق ، ولو تصورنا أنها نساء فقط لكانت أمرا لا يحتمل ..

انما تنشأ المشاكل بين الرجل والمرأة حين يحاول كل واحد منهما أن يفرض طبيعته على الآخر ، ويلزمه بأفكاره ، ويصنع منه تمثالا على صورته ..

هنا يختل الموقف ويولد الصراع الدرامى الذى يميز جوهر المأساة ، كنت ضيفا متحدثا فى اجتماع لأحد النوادى فى القاهرة ، ومن عادتى إذا ذهبت للحديث أن أجرَّ المستمعين إلى الحديث وأجلس صامتا أتمتع بالإنصات ..

كان الموضوع المفتوح هو تحول الصداقة إلى الحب أو تحول الحب إلى الصداقة .. أيهما هو المأساة ؟ كان رأيى أن المأساة تكمن فى تحول الحب إلى الصداقة .. وكان رأى السيدة الكريمة التى تناقشنى أنه ليست هناك مأساة على الإطلاق ، بل إن كلا الأمرين لطيف ولا بأس به .. (مادام الزعل ممنوعا والشكك مرفوعا والثواب على الله) ورأيت رأى السيدة أنضج من رأيى ..

كنت رجلا أشيب ولكنه مازال يتعلق بأفكار صار أصغر تلاميذ المدارس اليوم يسخرون منها ..

ورحت أستمع .. حقا .. إن فى الاستماع سبع فوائد ، أهمها أنك تستطيع أن تنام قليلا .

يسقط المطر

ولد الشتاء أخيرا من قلب الصيف ..

مات الصيف بعد عمر طويل قضاه فى أداء واجبه كاملا وإلى النهاية ، وهكذا تموت الفصول كما تموت الأشجار وتبعث كما تموت الخلائق وتبعث ..

والأصل أن فصل الشتاء من الفصول الموحية الجميلة التى يزيد فيها النشاط الإنسانى ، وعلى حين تبقى السماء صحوا وبلا تعبير فى فصل الصيف ، تتغير تماما فى الشتاء بهذه السحب المثقلة التى تحمل المطر ، والسحب معجزة من معجزات الله ، وسقوط المطر آية من الآيات ، والمطر فى أصله البعيد كان جزءا من مياه البحر ، ثم سخن نتيجة للشمس فتبخر ، ثم صعد إلى الجو حيث البرودة فعاد يتكاثف ويتجمع ويسير فى رحلته مع الرياح ، حيث تقوم الشحنات الموجبة والسالبة بتوليد البرق والرعد والمطر .. أى أننا أمام أكثر من معجزة .. وكل معجزة منها تثير التأمل وتضع الإنسان فى قلب إحساس من الصفاء والنبل ..

من نافذة البيت تأملت سقوط المطر ، وأحسست أن الكون يغتسل ، وداخلنى إحساس بالرضا والصفاء ، ثم نزلت من البيت لأقع فى حكاية من حكايات أهوال الشاطر حسن ، وهو فى طريقه لإحضار جوهرة يقبض التنين عليها بفمه .. كان

الشارع هو هذا التنين المرعب ، على جانبى الطريق أوحال تركت السيارات آثار عجلاتها فيها ، ووسط الطريق تراب ناعم تصير له قوة زحلقة الصابون فى حمام أرضه من الكريستال .

السير إذن بحذر ..

على يمينك بحر طوله عشرون مترا ويحتل جانب الطريق الأيمن ، وقد نشأ هذا البحر من إهمال صانع الطريق أو سهوه أو نسيانه ، وبسبب هذا الإهمال صار هذا الجزء من الطريق منخفضا كمنخفض القطارة ، وإن كان حجمه أقل وعمقه أضحل ..

ثم يتغير الموقف بعد دقائق بمنخفض على اليسار ، ثم يجىء كوبرى (يشر) المياه على السيارات التى تمضى بجواره ، وتتساءل بينك وبين نفسك ألم يكن هناك اختراع يسمى «البالوعات» لتسريب مياه الأمطار ، وكان فى شرفات البيوت اختراع يسمى « الميزاب » أو المزراب ، أين ذهبت هذه الاختراعات البدائية ؟ وكيف ينسى منشىء الطريق بالوعاته ..

لحظة بعد لحظة تحول الطريق إلى هول بطىء وجامد وبلا معنى ثم .. أفسح الهول طريقه لشعور باللامبالاة ، لم يلبث أن امتزج ببطء الإيقاع فصنع شيئا يشبه البلادة أو السهوم .

وهكذا ضاع الإحساس بالنبل والصفاء حين سقط المطر ، وكان سقوط المطر سببا فى ولادته أصلا .

ورقـــة شـــجر

لا أحد يدرى سوى الله وحده أى آمال سرت فى عروق ورقة الشجر حين ولدت ذات صباح ربيعى ناعم .

إن نعمة الحياة توحى للمخلوق بزهو لايمكن سجنه فى كلمات ..

فى البدء كانت ورقة الشجر خضراء غضة ، وكانت ناعمة .. أما خضرتها فكانت تميل إلى أول درجة فى الأخضر الفاتح .. كانت خضرتها مشرقة بشمس صيفية عفية ، وفى عروقها تكاد تسمع دوى العصارات ، وهى تصعد من الجذور إلى الساق إلى الأوراق إلى الوريقات ..

وكانت الورقة تتلقى هبة الله بالشكر الأخضر والحياء المنكسر .

ثم دارت الأرض حول نفسها دورة .. مر يوم قل فيه خجل الوريقة المولودة وتفتحت أكثر .. وتسرب إلى لونها الفاتح مزيد من اللون الأخضر من نفس الدرجة ، زادت خضرتها انبساطا واتساعا ، وبدت الورقة كأنها تريد أن تقول شيئا وتتهيأ لفتح فمها ، ولكنها عدلت فى اللحظة الأخيرة ، لم تقل شيئا ، ولكن شيئا ما فى مظهرها كان يؤكد أنها تهدر بفرح عفوى طفولى ، لايدرى عن أوجاع الأشجار شيئا ..

ودارت الأرض حول نفسها دورة ودورة ، مر يومان فتغير فيهما لون ورقة الشجر ، لم يعد اللون الأخضر هو

نفسه ، زاد شعره من لون أخضر أشد دكنة ، لون أخضر فيه سر ما ..

وبدت ورقة الشجر الجديدة مميزة وسط الشجرة كلها .. كانت تلمع أكثر من بقية الأوراق ، وكانت تضوى أكثر من البقية ، وكان هدير العصارات يمضى داخلها مثلما تمضى الموسيقى الكونية فى نسيج الكون ذاته ..

استوت الورقة الجديدة .. وقالت باستوائها كلمات كثيرة لم تفهمها غير بقية أوراق الشجرة ، والشجرة نفسها ..

مرت أيام .. ومازالت الورقة تفضى بأسرارها إلى الهواء .. كل يوم كانت الورقة تستحم فى الشمس ، ثم تجفف نفسها فى الظل ، ثم تتأمل القمر أثناء الليل ، ثم تأخذ حمام الندى فى الفجر ، ثم تعود لحديثها الهامس الغامض الطويل الخافت ..

ثم مرت الرياح عليها يوما فتحركت كأنها ترقص .. ورمقتها بقية أوراق الشجرة بابتسام يشبه تأمل الشيخوخة لعبث الأطفال ..

لكن الشمس لاتترك أحداً على طفولته .. مرت أيام وشهور وكبرت ورقة الشجر ، وزحف عليها لون يقترب من لون الشمس الأصفر .. انطفأ البريق وجاء خريف الشيخوخة ووهى اتصالها بالشجرة ولا أحد يعرف متى تتهاوى الورقة ساقطة على الأرض معلنة قدوم فصل الشتاء .

تأمــلات فى الحــب

كونشرتو البيانو لإدوارد جريج ..

يبدو الكونشرتو مثل ابتسامة حب تستغرق نصف ثانية وتحدث تموجات أثيرية فى الهواء نصف ساعة ، بعدها تكتشف أن الحب مخلوق يتيم فى عصرنا ، لم يعد هناك من يرعاه أو يربت على رأسه ، صار الناس يتحدثون عن الحب بعقل ، صاروا يستطيعون قيادة عواطفهم كما يقودون سياراتهم ، وصاروا يملكون القدرة على فرملة هذه المشاعر كما يفرملون سياراتهم ، وهكذا تحول الحب من كونشرتو إلى طبل بلدى ، وتحول من همس إلى ضوضاء ، وضاع رقيه الداخلى حين تعرى جسده ...

يقول (هيجل) وهو يتحدث عن الحب والمطلق : إن مفهوم الروح الحر المكتفى بنفسه هو الحب ، والحب فى تصوره هو العودة الهادئة المطمئنة إلى الذات ، بدءا مما هو غير الذات ، وهذا « الغير » الذى يمكن للروح أن تسكن فى جنباته لابد أن يكون بدوره من طبيعة روحية وذا شخصية روحية .

وماهية الحب الحقيقية تكمن فى إلغاء وعى الذات ، أو فى تناسى الذات فى « أنا » مغاير ، وهذا بغية التقاء الذات من جديد وتملكها فى هذا النسيان والإلغاء.

.. ويمكن تبسيط هذه الفكرة بأن الحب هو سكن لروح فى روح آخر ، واكتشاف الروح لنفسه خلال هذا السكن الجديد ..

ونحن نتحدث عن أزمة المساكن المادية ، ولكننى أحس أحيانا أن أزمة المساكن الروحية أخطر وأصعب ، ومنذ ١٤ قرنا من الزمان تحدث الخالق العظيم عن الزواج باعتباره سكنا ﴿ **خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها** ﴾ وأعظم الآلام االبشرية تنبع من سكنى روح عظيم فى روح أقل عظمة ، أو سكنى روح صغير فى روح واسع ، وأزمة الاختيار هذه هى الأزمة الحقيقية ، وهى الأزمة التى تبدو جوارها أى أزمة أخرى أقل أهمية .

إن راحة الجسم أمر ضرورى للإنسان ، ولكن استقرار الروح أمر أشد أهمية ، وأى ذات فردية تعيش – منفصلة عن الله – فى الخطيئة ، هى روح تمتلىء بالغيوم والخوف والقبح ، ومن الصعب السكنى فيها ، ومن الصعب قيام الانسجام بينها وبين روح يعرف الله ويحلم بالسلام الإلهى والحرية .. ومن العجيب أن الناس تدقق فى اختيار مساكنها أكثر مما تدقق فى اختيار الأرواح التى تنوى السكنى فيها .. بينما السلام الحقيقى فى الأرض يكمن فى العثور على هذا الملاذ الروحى الأمين .

عندئذ فقط يعرف الانسان جزءا من حقيقة الجنة .

الإشـــــارة حمــراء

هذه الدنيا مكان صغير كثقب الإبرة .. وفى نفس الوقت هى مكان واسع إلى الحد الذى يتوه فيه الآلاف كل عام فى الصحارى والجبال والغابات والبحار .. كان إحساسه يتراوح بين هذه السعة التى يتوه فيها البشر ، وهذا الضيق الذى يشبه ثقب الإبرة ، وشعر بأنه سجين حفنة من الدم والعظام واللحم البشرى ، وأدرك أن الهيكل الترابى الفانى الذى يرتديه يطبق على روحه .. كانت المشاهد تجرى على يساره ويمينه وهو يقود سيارته ، ثم زحف عليه نذير حزن غامض (مضبب) ..

- سنموت ذات يوم،فلماذا نتخاصم؟.

- أنت تتعامل بقلبك ، وأحيانا بعقلك ، ولكننى أتعامل بضميرى ..

دعينا نسقط خلافنا فى البحر .. سنغرق معا إذا لم نفعل ..

كانت عنيدة وكانت كبرياؤه كجبال الثلج التى تخفى أربعة أخماسها فى المياه ، واصطدمت السفينة بجبال الثلج ، واختلج داخله ضرب من الإحساس الحدسى بنذير يوحى أن حدثا يوشك أن يقع ..

لم تكن ملامح الحدث تكشف عن نفسها ، كان ضباب التكوين يخفى هيكل الحدث تماما ، وتذرع بالصبر وراح ينتظر

هذا الشيء حتى يستكمل نموه ، أدرك أن من الحمق أن يقبض على هذا الإحساس فى مرحلة تكوينه المبكرة ، فقد كان كل شيء هلاميا لم يستقر على صورته النهائية ، وخشى إن حاول الإمساك بإحساسه أن يدمر كل شيء قبل أن يتكون .

وانتظر طويلا ، والانتظار قاس إذا كان المرء ينتظر صورة بلا ملامح أو روحا بلا جسد ..

كانت إشارة المرور حمراء فوقف .. التفت بوجهه ناحية اليمين فشاهدها تجلس فى سيارتها .. ابتسم ابتسامة مذنبة فلم يعرف هل رأتها أم تجاوزتها بنظراتها إلى الأفق .. أحس أن الشارع الأسفلت أمواج بحر عاصف يركض موجه فى اضطراب يشبه اضطراب العواصف ..

مات وبعث مرات .. أمسك بالنار فوجد الثلج فى قلبها لم ينصهر بعد ، ذاق حلاوة الفشل ومرارة النجاح ، ضحك من أعماق قلبه وانتهت ضحكاته بالنحيب ..

استدارت بسيارتها ومضت فى اتجاه اليمين .. كانت إشارة المرور لم تزل حمراء .. راح يغوص فى مكانه وسط رمال متحركة .. أضاءت الإشارة باللون الأخضر فغير اتجاهه وجاء يزورنى ..

كان يرتعش مثل عصفور انكسرت أجنحته ووقع فى الزيت المغلى .. حدثنى أنه يتعذب وراح يسألنى ماذا يفعل .. وتأملت فيه كل عذاب الشعراء وهم يحبون .. ولم أعرف ماذا أقول له أو كيف أخفف حزنه .

قيـــس .. تليفـــون

كان قيس بن الملوح يعبر صحراء الملح والعطش حين دق جرس التليفون فجأة ، توقف قيس ورفع بيده سماعة الرمال فانسكبت الرمال من بين أصابعه واستمع إلى الصوت على الخط الآخر ، لا صوت هناك غير صوت النجوم وهى تندفع فى مساراتها فى الفضاء اللانهائى للمجرة .. كانت النجوم تتصور أنها حرة وكان قيس يتصور أنه حر ، ولكن ليلى وحدها كانت تعرف الحقيقة،فقد سجنوها باستثناء صوتها ، وها هو ذا ينساب عميقا من أسلاك الرمال .. استمع قيس لاسمه وهى تردده وأحس أنه يولد ويموت من جديد ، كانت روح روحه تردد اسمه ، وإن تأكد له فيما بعد أنها لم تنطق باسمه أبدا لأنها كانت تعرف أنه ينتظرها،سألها قيس كيف حالك ؟ أجابه الصمت،فأدرك أنه كان واهما وعاد يسير ، كان صوتها معطرا بأعظم أحزان الكون نبلا وعذوبة .

بدأ يرسم وجهها فوق الرمال .. رسم وجه طفلة فى العاشرة أو العشرين أو الثلاثين أو الألف ، لم يستطع أبدا أن يحدد عمرها وإن كان على يقين من عمر براءتها ..

كان قيس يتصور براءة كون مخلوق يتجه نحو خالقه زاحفا كطفل رضيع . وتصور نصاعة الجبال قبل أن تهبط فوقها الثلوج ، ورعشة السحاب الكهربائية الأولى وهو يكتشف فى نفسه القدرة على المطر ، ودهشة المياه الأولى وهى تهوى مع الرياح ثم تصطدم بالبرد الموحش ، ثم تصور براءة المياه حين تتحول إلى ثلج .

وتصور أحزانها فى صقيعها الفاجع ووحدتها فوق الجبال ، انحنى الثلج على قمم الجبال فى قبلة لم يرها سوى الله ، ستولد من هذه القبلة مع شمس الربيع القادم زهرة فرح وحيدة فى منتصف جبهتها ، سيقتل العناد الغبى فى جبهتها هذه الزهرة قبل أن تولد . جبهتها ضيقة تنحدر منتهية بحاجبين يشبهان صفين من أشجار الصندل ، أما الغابة البرية المغسولة فى شعرها فما أكثر عدد العذارى اللاهيات فيها ، ولعل أشد العذارى لهوا وعبثا هذه الخصلة الشقية من شعرها ، فهى تداعب عينيها وتقف أمام كل عين قليلا ثم تتأرجح مع الهواء مرة هنا ومرة هناك ، الفرح الوحشى الصافى فى جبهتها ،وعلى مسافة ملليمترات ترقد الأحزان النبيلة فى عينيها ، تماما مثلما يلتصق الليل بجناح النهار أو يختبىء عصفور النهار فى جناح الليل . صدرها مسك وعنبر ، وفمها لبـان معطر ، وفى عينيها براءة غزال جبلى ، يتأمل غروب الشمس بدهشة لا تخلو من تحنان ..

عاد جرس التليفون يدق ، أدرك قيس أن التليفون الأول كان سرابا فلم يتوقف ، راح يسأل نفسه: لماذا يرى وجهها جميلا ، ولماذا يرى جمالها مرهبا كجيش بألوية ولماذا يتصور أن نشيد الإنشاد قيل عن عينيها رغم أنها ولدت بعده بآلاف السنين ، ولكن أى قيمة للزمن فى وجود الحلم ، لعلها كانت حلما لقائل النشيد مثلما هى حلم لأشعاره ، أحس قيس بالعطش فجلس قليلا وبكى ، بلل شفتيه بملح دموعه وعاد يسير نحو أول بيت من الشعر .

روميـــو وجوليـيـــت

عرض التليفزيون المصرى فى برنامج أوسكار فيلم روميو وجولييت القديم .. وهو فيلم قديم أثار فى الذهن ذكريات قديمة ، وذكرنا بالحب وأيامه وسنينه ، كما ذكرنا الفيلم أننا نشيخ ونهرم ، لأن العشاق لا يتفرجون على فيلم لروميو وجولييت ، إنما يعيشون هذا الفيلم ويمثلونه فى الحياة .. ولكن الدنيا برد ، وقد دخل الجن الأزرق تحت البطاطين هربا من الثلج .. وبالتالى لم يعد أمام العشاق سوى مجال الفرجة على روميو القديم وهو يحب جولييت القديمة ..

إن روميو هذا كان مدهشا ..

ما هذا الشهد المصفى الذى ينحدر من فمه ..

وما هذه الجواهر التى تقولها جولييت ..

إن روميو يقول لجولييت : أقسم على حبنا بالقمر .

لقد وجد روميو وقتا ينظر فيه إلى أعلى . وهناك رأى القمر معلقا فى السماء فأدخله طرفا فى قصة الحب وأقسم به .. وهذا توريط للقمر .

ولكن ... ما هذا (الروقان) والصفاء ؟. لانريد أن نحسد روميو .. ولكن انظر إلى رد جولييت الفصيح البديع : آه .. روميو لا تقسم على حبنا بالقمر .. هذا المخادع الذى يتغير كل ليلة ..

ان الدفع القانونى والفقهى الذى أثارته جولييت معقول جدا .. ولابد أن تأخذ به المحكمة وإلا اعتبرت ظالمة .. ويفكر روميو طويلا ولا يهتدى لأى حل .. ويسأل جولييت : بماذا أقسم إذن ؟ ..

إن ورطة روميو حقيقية ، وسؤاله لجولييت ليس تنطعا من تنطعات العشاق البلداء .. إنما هو سؤال رجل وقع فى بئر من الحيرة .. لكن جولييت العاشقة لاتتردد فى إجابته إلى سؤاله : أقسم بنفسك أيها النبيل .

كلام جميل انتعشنا له ونحن نتفرج على التليفزيون ، وأى رجل لا ينتعش إذا قالت له امرأته هذه الكلمة .. أليس هذا أفضل من أن تسمه بكلمة تدخل ضلوعه كالخنجر ..

ثم انظر ماذا قال روميو بعد دقائق لجولييت : أنت تعطرين الجو الذى تتنفسين فيه ! !

كلام جميل .. لم يقل لها : (ابعدى وشك شوية لحسن بتتنفسى فى وشى !) أبدا .. كان روميو فى حالة (روقان) كامل ..

السؤال الذى يثيره الفيلم .. أو الحسرة التى يغمدها الفيلم كالخنجر فى ذكرياتنا: هل هناك حب بهذا (الروقان) والصفاء ؟ وهل كان شكسبير رجلا واحدا أم كان آلاف الرجال والنساء معا فى حيز ضيق محدد يسمى شكسبير ؟ .. وهل روميو وجولييت قصة حقيقية أم حلم نحلم بتحقيقه ؟.

البعد الخامس

هناك ناس لهم بعدان ..

البعد الأفقي والبعد الرأسي .. طوله كذا وعرضه كذا .

وهناك ناس لهم ثلاثة أبعاد ..

البعد الأفقي والبعد الرأسي وبعد ثالث هو العمق ..

وقد أضاف أينشتين بعدا رابعا هو الزمن ..

ولا بأس أن نضيف بعدا خامسا للإنسان هو الحب ..

وبغير هذه الأبعاد الخمسة لايستطيع الإنسان أن يمارس وجوده كإنسان ، وكثيرا ما نرى فى الدنيا قوما همهم صنع النقود ، أو لديهم مقدرة على بناء الثروات وتراكم رأس المال ، وهؤلاء يحظون باحترام الناس عادة ، ولكن هذا الاحترام لا يتحول إلى ود إلا إذا كان للإنسان أكثر من بعد .. فليست الثروة غير البعد الأفقي والبعد الرأسي وحدهما .. طوله فى البنك كذا وعرضه فى الأطيان كيت ..

ولقد كان قارون رجلا غنيا من أغنياء بنى إسرائيل ، ورغم ثرائه المدهش كان رجلا لا يمكن احتماله أو الاستماع له أو اعتباره إنسانا .. كانت كنوز قارون توضع فى حجرات وخزائن عديدة ، وكانت مفاتيح كنوزه-كما يحدثنا القرآن الكريم-

تعجز العصبة من الرجال عن حملها ، ورغم هذا الثراء كله فقد كان غروره الجاحد يصور له أن هذا الثراء قد أوتيه على علم .. أى أن عبقريته هى المسئول عن ثرائه ، ولقد ضل قارون لأنه كان رجلا له بعدان اثنان ..

لو توافر له البعد الثالث وهو العمق لأدرك أن المال فتنة ، وأن كثرته فتنة أكبر ، وأن ما يمنح المال للبشر هو إرادة الله لاعلم الإنسان ، ولو توافر لقارون البعد الرابع وهو الزمن لأدرك أن الإنسان إلى هلاك ، وأن أحدا لا يحمل معه ما ادخره من المال ، يولد الإنسان فقيرا عاريا ويعود إلى بطن الأرض فقيرا عاريا .. لا يحمل معه سوى ما اكتسبه من الطيبات لا المال .. وما ادخره من الإيمان لا الذهب ..

ولو كان لقارون البعد الخامس وهو الحب ، لما بغى أصلا على قوم موسى ، ولتغير موقفه الكلى من الحياة ..

وقس على المال كل جاه أو عبقرية أو نبوغ أو تفرد أو امتياز .. لا قيمة لهذا كله بغير أبعاد الإنسان الخمسة ..

ولا يوفر هذه الأبعاد الخمسة سوى الإيمان بالله ابتداء .. يعرف المؤمن أن المال عارية مسترجعة ، وأن الجاه ظلٌّ يتغير بدوران الأرض ، وامتداد الظل ثم انحساره ، ويعرف أن كل ما سوى طيبة القلب وعمل الصالحات إلى فناء ، ويعرف أن البلاء بالخير والشر فتنة .. ولا أحد يفرح بالفتنة من العقلاء .

ماذا تفعل ؟

لا تصمد الصرامة أمام العشق . تنهزم الصرامة ولكنها تتماسك ، وينتصر العشق عليها ولكنه ينسحب من أمامها ، لأن العشق لا يواجه إلا ما هو كفء له كالعشق وهكذا انتصرت زيزى البدراوى على مديحة حمدى فى تمثيلية"عندما تحب المرأة"، وانسحبت من أمامها فى نفس الوقت ، ووقف يوسف شعبان يواجه اختياره ، وانتهت التمثيلية هذه النهاية المفتوحة ، وهى نهاية أحسست منها أن المؤلف الذكى يريد أن يشركنا فى الحل ..

ما الحل الآن يا عزيزى يوسف شعبان ؟

أقول لك .. لقد لعبت دور رجل شجاع ، رجل تزوج المرأة التى يحبها بدلا من الوقوع فى الحرام ، وقد عاقبتك مديحة حمدى على استقامتك ، ووقفت ضدك . كما أن أغلبية المجتمع سوف تقف ضدك مع مديحة حمدى .. هل تعرف لماذا ؟

لأن معظم الناس منافقون ، يرضيهم أن تتخذ عشيقة ، ولا يرضيهم أن تكون لك زوجة ثانية .

إننى أحدد لك مركزك بمنتهى الصراحة ؛ لكى تكون على بينة من أمرك ، إن جميع الأزواج الخائنين والتعساء يقفون ضدك ، يريدون أن تظل تعيسا مثلهم وتخون مثلهم ، وجميع الزوجات الصارمات يقفن ضدك . لأن نموذجك لو شاع فى المجتمع لهدد ذلك عروشهن . كما أن قانون الأحوال الشخصية الجديد يقف ضدك ، فهو يعتبر زواجك من امرأة ثانية إضرارا بالزوجة الأولى ، رغم أن القاعدة الشرعية تبيح الزواج من أكثر من زوجة بشرط العدل ..

رغم كل ذلك فإننى أقول لك : ولا يهمك ..

إنك لم تخطىء حتى الآن ..

وسوف تواجه مجموعة من الاختيارات ، إذا كان يهمك رضا الله أكثر مما يهمك رضا المجتمع المنافق ، وإذا كنت تحسب حسابا لحياتك على الأرض وموتك وبعثك وحسابك .. وإذا عرفت أن الذى يحاسب يوم القيامة هو الله تعالى لا المجتمع ، وإذا أدركت أن قاضيك يوم القيامة هو الحق لا الأنظمة الأرضية أو القوانين الوضعية ..

إذا عرفت هذا كله فعليك أن تختار ، وسوف تجد مئات يقولون لك : لماذا (دوشة) الدماغ ، لماذا تزوجت المرأة الثانية ؟ ولماذا لم تكتف بحبها فى السر ؟.. وستسمع من زوجتك الأولى قولها لك : أنا أو هى .. وهؤلاء جميعا ينظرون إلى التقاليد الاجتماعية والأعراف الفاسدة أو الأنانية الشخصية ، كما تنظر زوجتك إلى كبريائها كامرأة ..

ابحث عن زيزى البدراوى (الزوجة المحبة) وقل لمديحة حمدى (الزوجة الصارمة) : إن قانون الله أولى بالاتباع من قانون الأنانية الشخصية أو كبرياء المرأة أو أى قانون يحابى الزوجة الأولى .. إذا رضيت فأمسكها وإن رفضت فسرحها ، وإياك أن تشترى رضا المجتمع بغضب الله تعالى .. هلكت إن فعلت ذلك .

عندما تحب المرأة

شاهدت فى التليفزيون تمثيلية « عندما تحب المرأة » .. وهى تمثيلية يدور موضوعها الأساسى حول حيرة رجل بين امرأة يحبها وامرأة تزوج منها تحت ضغط عائلته ..

لعب يوسف شعبان دور الزوج والمحب ..ولعبت زيزى البدراوى دور الحبيبة ، والزوجة الثانية فيما بعد ، ولعبت مديحة حمدى دور الزوجة الأولى ..

وقد اختار الرجل أن يتزوج حبيبته الأولى بعد زواجه ، واستأجر لها بيتا وعاش بين زوجتيه .. ثم تداعت الأحداث وعرفت مديحة حمدى أنه على علاقة بامرأة أخرى ، وبدأت فى مراقبته حتى اهتدت إلى مكان شقته الجديدة ، وضربت الجرس ودخلت ثائرة وراحت تصرخ فى وجهه وتوجه إليه التهم حتى اضطر أن يعلن لها أن هذه المرأة زوجته .. وبهذا الإعلان تصل الأحداث إلى ذروتها وتتداعى الأحداث فى النهاية فإذا بالزوجتين تهجرانه ، زيزى البدراوى تهجره لأنه يتعذب وهى تحبه إلى درجة التضحية بنفسها من أجله ، ومديحة حمدى تهجره لأنه ارتكب جريمة فى حقها وهى الزواج من امرأة أخرى وعليه أن يختار بين المرأتين ..

وقد وضعت مديحة حمدى الموضوع على (بلاطة) حين قالت له إن عليه : إن يختار واحدة منهما .

وترك المؤلف التمثيلية عند هذا الحد .. وبدت لى النهاية المفتوحة مثل استفتاء عام لمشكلة رجل تزوج من امرأتين ، ولم يحسم أمره بعد هذا التهديد على اختيار معين .

وقبل أن أدلى برأيى فى هذا الموضوع ، أريد أن أقول كلمة عن أداء الممثلين وجهد المخرج محمد أباظة .

بذل المخرج جهدا طيبا لا يعيبه سوى بطء الإيقاع الشديد سواء فى حركة الكاميرا أو حركة الممثلين ، أو طريقة نطقهم لعبارات الحوار ، وهو بطء كاد يزهق أرواحنا فى بعض الأحيان ، كما أن استخدام المخرج للموسيقا التصويرية جاء مبالغا فيه بعض الشيء ، وإن كان هدفه النهائى أن يصور الجو النفسى العام ، ويستعين له بالموسيقا وهذا الأسلوب قد هجر تقريبا فى المسلسلات التليفزيونية الحديثة ، ولولا المغالاة فيه لاكتمل العمل ، ومهما يكن من أمر فقد كان جهد المخرج الفنى واضحا .. أما يوسف شعبان فقد نضج منذ فترة طويلة ، وصار أداؤه مقنعا بحق ولقد نجح فى أن يجذب تعاطفنا معه طوال الوقت خلال أدائه لدور الرجل الممزق بين واجبه تجاه الزوجة الأولى وحبه تجاه الزوجة الثانية ، أما مديحة حمدى وزيزى البدراوى فقد قدمتا بنجاح طيب نموذجين لامرأتين : الزوجة الصارمة (مديحة حمدى) والزوجة العاشقة (زيزى البدراوى)

قال : أنا بليد !

قال صديقى لخطيبته : إننى أحبك ، فلماذا أقترب منك وتبتعدين ؟

قالت : لا أعرف ؟

قال : أنت تبتعدين عنى إذن .

قالت : لا أبتعد عنك ولا أستطيع الاقتراب منك فى نفس الوقت .. بيننا حاجز لا أستطيع اختراقه .

قال : حاجز ؟! ..

قالت : شيء يشبه الحاجز ..

قال : ما هذا الشيء ؟

قالت : لا أعرف .. أحيانا يخيل إلىّ أنك بليد .. أو فيك بلادة .. ضحك بسرور فى البداية ، ثم تحولت ضحكته إلى الصمت المخنوق .

قال دهشا : أنا بليد ؟..يمكن اتهامى بآلاف الأشياء ، يمكن اتهامى بالجنون أو الوقاحة أو الكبرياء ، لكن البلادة .. أنت لا تعرفين عقلى ..

قالت : لا أتحدث عن عقلك ، ولكنى أقصد إحساسى بك ..

قال : أنا بليد ؟ ..

قالت: نعم .

قال : هذه إهانة ، وسوف أدعوك للمبارزة أو أنسحب وأفسخ الخطبة .

قالت : أعرف أنك شديد الحساسية وفيك جنون جميل وتوهج ، ولكن يخيل إلَّى أحيانا أنك بذلت جهدا هائلا لقتل الأمير النائم داخلك ، كل إنسان فينا ينام داخله أمير رائع ، وأحيانا يوقظ الإنسان هذا الأمير ، وأحيانا يقتله أو يخدره .. هل فهمت ماأريد قوله لك ؟ ..

صمت قليلا وراح يفكر فيما قالته ، أراد أن يقول لها إنه كان صادقا فاعتبره الناس مجنونا فتعلم الكذب ، وكان بريئا فاعتبره الناس أبله فتعلم الخبث ، وكان متوهجا فاتهمه الناس بالتهور ، فتعلم البرودة ، وكان يحس بالدهشة أمام كل ما هو معتد فاتهمه الناس بالحمق فتعلم البلادة ، يوما بعد يوم راح يبنى الأمير النائم داخله سورا راحت حجارته ترتفع حتى اختنق الضوء وضاع الأمير فى الظلام .. وحين مات الأمير داخله لم يعد هناك ما يبهجه ، انتزعوا منه بهجة الأشياء وتركوه بليدا ، رفع رأسه بعد لحظات ، وقال لخطيبته : معك حق ! ، لقد أصبحت (بليدا) و(قالت : الحمد لله ..) أنك اعترفت .. تخيل مدى التعاسة لو كان الأمير النائم داخلك لم يمت ، ووقعنا فى الحب !!

قال : لا داعى لكثرة الكلام .. هل نفسخ الخطبة ؟ ..

قالت : بل نعجل بالزواج ، فأفضل الأزواج الصنف البليد المستقر .

فى ضـــوء الشـــموع

أحيانا أكتب فى ضوء الشموع حين ينطفىء النور وكثيرا ما يفعل ، وقد اعتدت الكتابة فى هذا الضوء المهتز المتراقص الذى يلقى ظلاله على الحيطان ، فيخيل إلىَّ أن الأفكار تتواثب حولى كالأشباح وتدب فيها الحياة .. انطفأ النور ، فجلست أمام شمعة ضخمة تلقى ضوءها على صينية من النحاس معلقة على الحائط ، كان وهج النحاس غريبا ، وولد فى رأسى سؤال مفاجىء : كيف يشع ما لا إشعاع له ؟ .. وكيف يضىء ما لا نور له ... ؟

إن معظم العباقرة وذوى الحساسيات فى الأرض أحبوا نساء غبيات المشاعر ، وتحطمت قلوب هؤلاء العباقرة ، وخرجت لنا روائع الأدب والفن والموسيقا من قلوب تنزف ..

كان تشايكوفسكى يتعذب عذابا هائلا ، وحبيبته نائمة تشخر ، وكان تشيخوف يسهر الليل كله والصواريخ الملونة تملأ روحه ، بينما حبيبته فى برودة رخام الأضرحة ..

ما هذا ؟ .. كيف يشع ما لا إشعاع له ... ؟

كيف تنام امرأة على جنب واحد ، ويتقلب على نار الجنون العبقرى العاشق لهذه المرأة ؟ .. أتكون هذه التجارب مقصودة ومتعمدة وتضعها الحياة فى طريقهم ليتعذب هؤلاء العباقرة ،وتنصهر أرواحهم وتخرج منها روائع النغم أو عذوبة الكلمات أو سحر الألوان ... ؟

ما هذا ؟ .. كيف يضىء مالا نور له ... ؟

كيف تصعق امرأة إحساسها ضعيف أو بليد حساسية عبقرى فيبدع سيمفونياته أو رواياته أو لوحاته أو أشعاره ... ؟ كيف تضغط من لا تتألم على زناد الألم فيذوب أحد الرجال ألما وهى لا تحس ... ؟

كيف تشع البلادة مزيدا من الحساسية ؟ .. وكيف تضىء ظلمة الروح روح كائن آخر ... ؟

أى إعجاز إلهّى لبديع السموات والأرض ! .. وأى تركيبة عجيبة للحياة والأحياء ... !

قرأت كتابا عن عذابات الفنانين ، وقصص حبهم ، وأدهشنى أن أحدا فيهم لم يعش قصة حب سعيدة ، فكيف يولد الفن - وهو شىء يسعد الناس - من أرض الشقاء والمعاناة ... ؟

مازال النور مطفأ ، والشمعة تبكى الآن ، ولكن بلا صوت ، لم أعرف هل هى صادقة أم تبكى من حرارة النار ؟ .. لم أعرف هل تتألم الشمعة أم تبكى لأنها منفعلة فقط .. ؟!

لكن عذاب النحاس المتوهج كان ينبىء عن ألم بطىء ولكنه قاهر ..

وأضىء النور فجأة فقفزت الأشياء من الظلمة ورسخت بثقلها على نفسى فهربت منى الفكرة ..

حاولت إمساكها فى الضوء ، ولكنها أفلتت مثل قطة شقية .

لغـــة الصمـــت

تعرف الكرة الأرضية مئات اللغات ، ولسوف تعثر فى البلد الواحد على أكثر من لغة ، بل إن اللغة الواحدة تعرف لهجات مختلفة تتراوح بين لهجات أهل الشمال وأهل الجنوب ، حتى ليصعب على هؤلاء فهم أبناء جنسهم ..

واللغة كائن حى ، يولد ويتطور ويموت ، ولقد ماتت لغات كثيرة بعد أن عاشت فترة على الأرض ، اللغة الوحيدة التى نجت من التطور المفضى إلى الموت هى لغة الصمت .

بل إن لغة الصمت تصلح للأحياء وتصلح للموتى .. وأجمل ما فى لغة الصمت أنها تولد فلا تعرف أنها ولدت إلا بعد وقت ، وهى تعيش فلا يدركها تغيير ولا تطور ، وهى لا تموت كما تموت لغات الكلام .

ويعرف العشاق لغة الصمت مثلما يعرفها الصوفية ، هؤلاء عشاق مثل أولئك ، يختلف موضوع الحب هنا وهناك ، ولكن لغة التعبير فى الذرا العالية واحدة هى الصمت .

سئل أحد الصوفية : لماذا لا تتكلم ؟
قال بعد لحظة صمت : ..... إن تكلمت احترقت .. رغم غموض الكلمة تبدو حقيقية .. ألا تحس أحيانا أن هناك مواقف تبدو فيها الكلمات مثل اجتراء على جلال الموقف أو قداسته ؟ .. سوف أسألك سؤالا آخر .. حين تفيض المشاعر

وتنمحى المسافات ويدنو المجرة البعيد من طرفها القريب ، ويتحول الكون كله إلى نغمة منسجمة واحدة ..
ماذا تفعل عندئذ ؟ .. هل تتكلم أم تكتفى بالبكاء .. ؟

ألا تحس أن الدموع هنا هى أبلغ تعبير يصدر من لغة الصمت ؟

ألا تشعر بأن اللغة حين تنصهر وتذوب تتحول إلى الدموع الصامتة ؟

كيف لا يكون للصمت لغة ؟ ..

أحيانا يقف الإنسان بين يدى الله فى الصلاة ويتعبد ، وأحيانا يقرأ أدعية مأثورة وجميلة ، ولكن هناك أحيانا أخرى تحس فيها أن أى كلمات تقولها لله لا تصلح للتعبير عن مشاعرك .. ولا تستطيع أن تصور عمق إحساسك بالحب حبا ينبغى لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه .. ألا تبكى عندئذ .. ؟

أليس البكاء عندئذ لغة ؟ ألا تظن أن الله تبارك وتعالى يترجم بكاءك إلى لغة لها مفرداتها وكلماتها وقواعدها ويسجلها سبحانه لك ..

كيف لا تصدق أن البكاء وهو صمت ذائب لغة من أرفع اللغات وأعظمها قبولا عند الله ؟ ألم تسمع قول رسول الله ﷺ « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله ؟» .

لاحظ صمت البكاء وصمت الحراسة .

عصـــرنا

نحن أبناء عصر غريب ..

إن الابتسامة الجميلة التى يضعها عصرنا على وجهه ليست ابتسامة ، وإنما هى قناع من أقنعة المسرح ..

إن عصرنا يتحدث عن الأخلاق وفضائل الزهد فى المال ، فى نفس الوقت الذى يكشف فيه تيار الحياة عن احترام المال والتغاضى عن الأخلاق ..

ولقد تحولنا من تقدير الصفات المعنوية كالرجولة والمسئولية والعلم واحترام المبادىء ، تحولنا من هذا كله إلى سؤال يقول : كم جنيها معك؟ . أقل لك كم تساوى ..

باختصار .. صار تقييم الناس يتم عن طريق حساباتهم فى البنوك .. وقد وقع هذا التغيير لعوامل عديدة ..

من بين هذه العوامل نشوء مهن جديدة ومصادر جديدة للثروات وتغير النظام القديم للمجتمع ..

وقديما كانت ملكية الأرض والعقارات تأتى فى مقدمة أسباب الثراء ، ثم وقع تحول فى العالم كله ، وكان هذا التحول يشبه الزلزال ، وحمل الزلزال بعض من كانوا فى القاع إلى القمة ، وبعض من كانوا فى القمة إلى القاع ..

والأيام دول ، ولا شيء يبقى على حاله ، وهذا كله مفهوم ومعروف ، ولكن الأمر الجديد أننا نعيش وسط عصر يغلو فى عبادة المال إلى الحد الذى يجعلها قيمة عليا من قيم الحياة .

قيمةتسبق الأمانة أو الشرف أو أى صفة معنوية أخرى ... ووسط حمى الاستهلاك والأنماط الجديدة له ، لم يعد تقييم الناس يتم وفقا لما يعرفونه أو يحسونه ، إنما صار يتم وفقا لما يملكونه من أرصدة ..

وهذا الخلل هو المسئول عن تدهور الحياة ..

والمعروف أن الطبقات الجديدة الغنية تفرض عادة ذوقها على الحياة ، كما تفرض قيمها ..

ولما كانت هذه الطبقات تفتقر إلى كثير من القيم والمشاعر ، فقد فرضوا فنونهم الرديئة وأذواقهم الفجة على المجتمع ..

ومن هنا صارت مصيبة المجتمع مزدوجة .. فهو من ناحية القيم يخضع لاحترام المال ، وهو من ناحية الآداب والفنون يتعرض لطوفان لاذوق فيه ولا مشاعر ..

وحين تفقد الحضارة قيمها المعنوية يكون هذا إيذانا بانتهائها ... وفى التاريخ آلاف الدلائل على ما نقول ..

لقد انتهت حضارة مصر القديمة حين صار ثور الرجل الظالم الذى يقدمه كقربان أهم من كلمة الرجل الصادق .

حـواس خارقـة

يحدثنا آلن ديفو فى كتابه « حواس خارقة » أن كثيرا من غرائب أفعال الحيوان يرجع إلى الحدة الزائدة فى إحساسه المرهف .. والإنسان وإن كان قد أوتى مواهب عقلية مختلفة ، إلا أن هناك طائفة من المدركات يفوقنا الحيوان فيها بفضل ما لديه من حواس مرهفة دقيقة ، وبفضل قدرته على أن يحس الأشياء .

إن الطائر المسمى بأبى الحناء يقف أحيانا ساكنا لا حراك به بين الحين والحين ، ويميل برأسه جانبا كأنه يدقق النظر فى الأرض ، بيد أن علماء الطير وجدوا أنه يفعل ذلك لأنه يصغى ويتسمع لهذا الصوت الدقيق الذى تحدثه الدودة وهى تخشخش متحركة فى مساربها ، ثم ينقض عليها مهتديا بالصوت لا بالرؤية ..

أما الكلاب فقد أوتيت حاسة سمع عجيبة ، كما ثبت بالاختبار ، فقد وجد العلماء ان الكلب يستطيع أن يسمع طقطقة الساعة أحسن سمع وهو على بعد أربعين قدما ، فى حين أن الرجل الحاد السمع يسمعها بشق النفس من بعد أربعة أقدام ، ومعنى هذا أن الكلاب تعيش فى عالم تبلغ فيه قوة الصوت عشرة أضعاف ما نسمعه نحن .

وقد أدرك علماء التاريخ الطبيعى ورجال الغابات ان الحيوانات تستطيع أن تشعر بالأشياء وتحس بها بأساليب يصعب علينا تصورها ..

وحسبنا القدر الذى بلغه علمنا بالإحساسات الخارقة فى عالم الطبيعة . وقد وجد العلماء ان فى السمك خطا ممتدا على كلا جنبيه ، وفى هذا الخط اعضاء بالغة الدقة لا تراها عين ، وهى التى يعرف بها السمك مقدار ضغط الماء ، وتنطلق صغار الأسماك سابحة فى ظلمة الماء وتياره دون أن تصطدم بالصخور ، لأنها تشعر بالصخور من خلال الأجهزة الدقيقة التى زودها بها الله ..

أما النحل حين ينطلق ساعيا إلى رزقه بين الزهور ، فأكبر ما يهتدى به فى طريقه هو الأشعة فوق البنفسجية التى يخرج تبينها على طاقة الإنسان جملة من بين ألوان الطيف ..

وهناك حيوان لو نزعت عينيه فإنه يبقى شديد الإحساس بالنور ، فهو يرى بجسده كله .. حتى ليجد للظل مسا على بدنه ..

يقول الله تعالى : ﴿ **قالت نملة يَأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ إن النملة تستخدم فى حديثها كلمة « يشعرون » وهكذا أشار القرآن إلى المعجزة التى يكتشف العلماء طرفا منها كل يوم .

دمـــوع اليتيـــم

يفقد الإنسان شيئا حين يفقد الأب أو الأم .. ويكتسب الإنسان صفة جديدة هى اليتم ، واليتم منبع لأحزان لا نهاية لشواطئها ، ومن المدهش أن الله تبارك وتعالى اختار كثيرا من سادة البشرية من بين اليتامى ، فقد موسى عليه السلام والده ، وولد عيسى عليه السلام بغير أب ، وجاء خاتم النبيين ﷺ يتيم الأب ، ثم ماتت أمه وهو فى الخامسة من عمره ، ولم تكن محض مصادفة أن الله تعالى يختار كثيرا من أنبيائه من بين اليتامى ، لأن اليتيم بحكم صلته بالأحزان يكون أقدر على حمل أحزان البشر ، وهو بحكم تكوينه تصير الرقة الحزينة جزءا من كيانه ..

وقد ربط الله تعالى بين الخوف الغريزى على الأبناء والتقوى .. قال تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** ﴾ .

ثم حذر الخالق الذين يأكلون أموال اليتامى بسوء العاقبة ، قال عز وجل ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾ .

وأمر الله تعالى أتباع دينه بإحسان معاملة اليتيم ، واستخدم النص القرآنى تعبير القهر فى قوله تعالى : ﴿ **وأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ ، والأصل أن اليتيم مقهور ، ومن ثم وجب على المؤمنين اتقاء قهر من هو مقهور أصلا ..

وقد روى عن رسول الله ﷺ قوله : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وضم إصبعه الوسطى والسبابة ..

وقد وعد الرسول من يسعد اليتيم برضا الرحمن ومثوبته .

والأصل أن الرحمة حين تشيع بين أفراد المجتمع يكون ذلك دليلا على صلاح المجتمع فإذا قست القلوب وتحجرت فسد النسيج الحيوى للمجتمع وناء الناس جميعا تحت إحساس قاهر بالضيق والبؤس الغامضين ..

لننظر حولنا فى اليتامى الذين تمتلىء الحياة بهم ، وليحاول كل واحد فينا أن يرسم ابتسامة على وجه يتيم .. أو يمسح دمعة من وجهه ..

من يدرى ؟ .. لعل هذا يكون إيذانا برحمة الله للكل .

هــدف الفـن

جرت العادة فى المسارح المحترمة ، على التزام الممثلين بالنص ، ولا يعنى الالتزام بالنص تقييد حرية الممثل ، فإن أمامه فى قماشة النص دائما مجالا واسعا للإبداع والتعبير وتلوين الأداء والتحكم فى الحركة . وأحيانا يتبادل ممثلان شهيران دورين مختلفين .. فى مسرحية « الشرف الإلهى أو توماس بيكيت » للمؤلف الفرنسى جان أنوى كان هناك ممثل يلعب دور الملك وممثل يلعب دور كبير الأساقفة ، وكان الاثنان يتبادلان دوريهما على المسرح ، أحدهما يلعب دور الملك اليوم ، ويلعب غدا دور رئيس الأساقفة . وكانا يبدعان فى الدورين معا ..

ليس هناك إذن قيود على حركة الممثل على المسرح ، ما دام ملتزما بالدور الذى يؤديه ..

ظاهرة تصرف الممثلين فى النص لا تحدث إلا فى المسرحيات الكوميدية عادة ، فقد جرى العرف الجديد على اشتراك الممثلين فى النص ، عن طريق التأثيرات التى تنبع من الموقف على خشبة المسرح ، وخطر هذا الأسلوب أنه يجر بعض الممثلين إلى الإيماءات الحسية التى قد تضحك الجمهور ، ولكنها تخرج بالعمل الفنى من مجال الرقى إلى مجال الهبوط ..

ولنسأل الآن ما وظيفة الفن أو مهمة الفنان ؟ .

يحدثنا أرسطو أن هدف المسرح هو التطهير ، بمعنى أن

على الفنان أن يحدث تأثيرا معينا فى جمهوره ، بحيث يطهره من مشاعر القسوة والشر ، وهذا يعنى أن الفنان مصلح اجتماعى ، يستوى هنا أن يعى الفنان ذلك أو لا يدركه ، وهذا يصدق على أدوار الخير وأدوار الشر معا ..

حين نشاهد شخصية شريرة على المسرح أو شخصية فاسدة ، فإن المطلوب من ممثل هذه الشخصية أن يثير فى نفوسنا مشاعر النفور تجاهها ، وكلما أفلح الممثل فى ذلك كان أداؤه أعظم .

ولو عدنا بذاكرتنا إلى مدرسة المشاغبين ، وتذكرنا سعيد صالح فى دوره الذى أداه بشكل مقنع ،وحين كنا نضحك كنا نضحك على خيبة هذا التلميذ المهرج ، الذى لا يعرف ماذا يقول لزملائه الفاسدين .

وكان هذا الضحك يطهرنا ويوقفنا ضد الفساد والخيبة ..

لم نكن نضحك من سعيد صالح لأننا معجبون بخيبته ، أو لأننا نرى فيه مثلا أعلى فى التلاميذ . كان العكس هو الصحيح .

هدف الفن النهائى هو التطهير ، حتى لو كان الممثل يلعب دور شخصية فاسدة ، والممثل فى النهاية مصلح يلعب دوره من أجل الرقى بالمجتمع .. وعليه دائما أن يذكر هذه الحقيقة .. وإهدار هذه الحقيقة يعنى ضياع صورة الفنان وهدف الفن .

يـــد الصـــداقة

تفضل المرأة الحب على الصداقة .. أما الرجل فيميل للصداقة أكثر مما يميل للحب .. والصداقة معنى أوسع من الحب .. وهى تتضمن شعورا يصل فى بعض الأحيان إلى مرتبة الحب أو يزيد أحيانا عليه ..

وفى الصداقة حكمة يفتقر إليها الحب .. كما أن فيها استمرارا لا يتأثر بميل المشاعر نحو أطراف أخرى .

كما أن نسيجها يحمل قدرا من الحرية لا يتوافر عادة فى الحب .. وتسير الصداقة والحب جنبا إلى جنب فى الحياة ، أحيانا تتشابه الملامح والثياب ولكن تعبير العينين يختلف ..

فى الحب تعبر العينان عن الرغبة فى الاستحواذ .. أما فى الصداقة فتعكس العينان تعبيرا عن المشاركة .

والاستحواذ سهل .

لايحتاج الشعور إلى الاستحواذ أو الملكية إلى تدريب أو معاناة

أما المشاركة فتحتاج دائما إلى عناء وتدريب ، وقد يحس الإنسان أنه يشارك غيره فى الآراء والمشاعر وهو فى الحقيقة يريد من الغير أن يشاركه فى الآراء والمشاعر .

وهذه نقطة دقيقة .

أحيانا يحس الإنسان أنه يريد أن يشارك غيره بينما هو في الحقيقة يبحث عن مرآة يرى فيها صورة لأفكاره ومشاعره .

وهناك فرق بين رؤية آرائي الخاصة في مرايا الآخرين والاشتراك مع الآخرين في آرائهم الخاصة بهدف الوصول إلى اقتناعات جديدة أو رأى جديد ..

وهذا هو الفرق بين النضج والأنانية

أو هو الفرق بين الصداقة والحب ؟ .

في الحب أنانية لا يمكن إنكارها .. وفي الصداقة نضج لايمكن إغفاله .. والسؤال المطروح هنا .. هل يمكن تطعيم الحب ببعض الصداقة دون أن تفسد طبيعته الخاصة ، يبدو أن الجواب هنا صعب .

لو كان قيس بن الملوح مثلا صديقا لليلى العامرية لأدركه الفهم أكثر مما أدركه الحزن ، ولاستقامت حياته على حساب نبوغه في الشعر ، ولعاش الرجل حياة سوية معقولة و لم يترك لنا ما تركه من شعر ينبع من جنونه .

لقد اختار الشاعر المجنون أن يظل على الحب ، رفض يد الصداقة الممدودة له .. وآثر أن يتعذب وحده وصنع لنا من عذابه تراثا من الأدب الجميل ..

ليس السؤال هنا : هل كان أعقل أم أعظم جنونا ؟ ..

إن جواب قيس : إنه كان أصدق .

الــوردة والفراشــة

ألقت دودة القز تحية المساء على رفيقاتها من دود القز ثم دخلت غرفتها الخاصة فى العلبة الكرتون التى كانت أصلا صندوقا للأحذية ، بعدها بدأت تفرز من فمها الحرير .. كانت دودة القز صديقتى وكنت طفلا ، ولم أعرف هل كانت تتألم أم كانت سعيدة ، سألتها: هل تتألمين حين تصنعين شرنقة الحرير ؟..

قالت : اصمت .. إننى أحلم ، ثلث حياتى للحلم وثلثها للواقع والثلث الأخير أقضيه فى سهوم ..

لم أفهم ما قالته ولكننى أحببتها أكثر ..

عدت أسألها : ما إحساسك وأنت تصنعين شرنقة الحرير ؟

قالت : اسكت .. إننى انتظر شيئا غامضا مجهولا ، وأحلم بشىء ما .. لست أعرف حقيقته ولكننى أحلم .

تركت دودة القز حتى صنعت شرنقتها واختفت داخلها تماما . كان هذا يعنى أن دودة القز قد ماتت بالنسبة إلى ، بكيتها كثيرا .. ثم جاء يوم وانفتحت الشرنقة وخرجت فراشة بدلا من دودة القز .. سألت الفراشة : من أنت ؟.

قالت : أنا صديقتك دودة القز ..

قلت لها : لم تكن دودة القز تملك أجنحة .

قالت الفراشة : لاتكن طفلا .. أنا صديقتك القديمة .. لكننى وقعت فى الحب .. صارت لى أجنحة وصرت قادرة على الطيران ..

طارت الفراشة .. جريت نحوها أسألها : إلى أين تذهبين ؟ .. قالت وهى تبتعد . لا أعرف .. إننى أطير وهذا يكفى ..

اندفعت الفراشة نحو الشمس .. وقعت فى حب الشمس ، كانت دودة القز تحب الأطفال ولكن الفراشات تحب الشمس ، الأطفال أعداؤها الذين يصطادونها ثم يثبتونها بالدبابيس فى العلب الزجاجية ، طارت الفراشة نحو الشمس واقتربت الشمس منها .. كانت الشمس تحلم بأرض تغذيها بالطاقة ، وكانت الفراشة تحلم بالرمز والمطلق .. دخلت الفراشة فى قلب الشمس فاشتعلت ..

من يومها تعلمت الفراشات أن تهوى نحو النار ظنا منها أنها الشمس ..

قال العابد للوردة .. حدثينا عن الله أيتها الأخت .. عندئذ تبسمت الوردة وفاح عطرها ..

سئلت الفراشة نفس السؤال فلم تقل شيئا ، احترقت من العشق وكان حديثها البليغ ألسنة نار صامتة ..

وهكذا تعبر المخلوقات عن حبها لله بأريج الصمت أو اشتعال الأجنحة .

الطوفان والصـــحراء

كان الطوفان يجرى مغترا بقوته مزدهيا بها حتى وصل إلى مشارف صحراء واسعة .. وقف الطوفان يرمق الصحراء بعيونه المائية الواسعة .. لم تكد الصحراء تحس بقرب الطوفان منها حتى بدأ الحوار بينهما ... قالت الصحراء للطوفان : إننى أحلم بك قبل أن أراك .. وأتخيلك قبل أن تولد ..

لم يعرف الطوفان ماذا يقول .. وقع فى أسر الدهشة .. وعادت الصحراء تقول : إننى أحبك حبا جارفا لا استطيع التحكم فيه أو فى نفسى ، إننى أحس أننى أتلاشى أمامك .. أذوب .. من الأفضل لى أن أبتعد ..

قال الطوفان للصحراء : ماذا علينا لو جربنا الذوبان مرة ؟ ..

قالت الصحراء : أريد أن أضع رأسى على صدرك ..

قال الطوفان وهو يتحرك نحو الصحراء : أنت تضعين رأسك على صدرى .

سألت الصحراء : هل خيالنا جنون ؟ ..

قال الطوفان : هذا الجنون هو عين العقل .

سألت الصحراء : ألن يحس الطوفان بالسأم من الصحراء .. فيبحث يوما عن حقل أخضر يفيض عليه أو جبال شاهقة يفيض تحتها ؟ ..

قال الطوفان : ليس للطوفان إرادة ليختار أو يبحث .. الطوفان مسير لا مخير .. تجريه يد القدرة الإلهية ، قالت الصحراء : أنت أكبر من خيالى ، من رغبتى،من الصورة التى رسمها لى العطش للظمأ قبل ذلك .. إننى خائفة .. مذعورة وخائفة .. يحتوينى شعور بالأضداد .. بالسعادة والشقاء .. بالخوف والفرح كأننى أشرب كوبا من العسل المحلى بالمر .. أريد أن أموت الآن .. لكى احتفظ بحبك فى هذه الدرجة المشتعلة ..

قال الطوفان : إننى أشتعل .. يا إلهى .. ماهذا الكلام الفارغ .. كيف يشتعل الطوفان ؟ .. أحس الطوفان بالخوف ولكن وقع فى فخ الصحراء .. صدق كلماتها الحلوة .. وانداحت مياهه نحو الصحراء ..

قال الطوفان لنفسه : سوف أغرق الصحراء حتى تنبت فيها الخضرة ، لم تقل الصحراء شيئا ..

تفرقت مياه الطوفان على الصحراء .. ومرت ألف سنة .. فى الأعوام الثلاثين الأولى جفت مياه الطوفان .. فقد نفسه .

وبقيت الصحراء على جفافها القاسى بعد أن رطبت جبينها ببعض المياه .

من الراكب ومن الماشي ؟

شاهد أعرابي وهو على راحلته فى طريقه إلى الحج .. الصوفى إبراهيم بن أدهم سائرا على قدميه ، فقال له : الشقة بعيدة وأنت رجل ضعيف ..

قال إبراهيم بن أدهم : عندى مراكب كثيرة لاتراها ..

قال الرجل : أين هى ؟

قال الصوفى : منها الرضا بقضاء الله ، والصبر على بلائه ، وشكره على نعمائه .

قال الرجل : سر على بركة الله ، فأنت الراكب وأنا الماشي .

.. .. ..

أحيانا تطفو هذه القصة لذهنى حين يلمع بريق الذهب على الأرض جوار تراب الرضا بالمقسوم ، أو حين تمرق سيارة فارهة تتصاعد منها الموسيقا جوار رجل وضع جبهته على الأرض وانخرط فى صلاة عميقة .. أو حين يقع حوار بين رجل أعطاه الله كل شيء باستثناء الهدى ، ورجل آخر سلبته الدنيا كل شيء وأعطاه الله تقواه ..

وقديما كان كفار مكة من أصحاب القلوب الصخرية ، يسخرون من المؤمنين حين يتحدثون عن الجنة ، ويتصورون أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة ، وأن الأغنياء على الأرض حين

يبعثون (مع التسليم بأن هناك بعثا) سوف يجدون خدمهم وحشمهم وأموالهم فى انتظارهم فى الآخرة .. وأن فقراء الدنيا هم فقراء الآخرة ..

وكانت هذه الفكرة التى يتداولها الملاحدة تصور لهم أن الراكب فى الدنيا سيركب فى الآخرة ، وأن الماشى فيها سيمشى هناك ..

وليس هناك تصور أسخف من تصور الكافرين السابق .. فالدنيا دار ابتلاء وامتحان ، أو فلنقل إنها أوراق الأسئلة التى يجيب عنها الناس ، ولا علاقة للخاتم الذهبى فى أصبع البليد بالهراء الذى يكتبه فى ورقة الإجابة ، كما أن الأصابع النحيلة الجائعة يمكن أن تكتب الإجابة الصحيحة .. وما أكثر الراكبين فى الدنيا وغدا يصبحون من أهل المشى مسافات طويلة فى الآخرة ، وما أكثر الماشين فى الدنيا وهم أهل الركوب فى الآخرة .

والمقلب الحقيقى الذى سيفاجىء الناس حين يبعثون أن المتعة فى الدنيا كانت قصيرة ، ولا تستحق هذا الكم الهائل الذى بذل فيها من الظلم والجرائم .. وأكثر البشر عمرا لايتجاوز المائة إلا نادرا ، فأى قيمة لمائة سنة من المتعة مقابل ملايين السنين من العذاب والندم ؟ !.. وأى حمق أن يظلم الإنسان نفسه ليستمتع أياما ويواجه الهول أجيالا بلا نهاية ؟ !..

لكن ماذا تفيد الكلمات فى صخور القلوب المصرة على الخطيئة .. إن أسلوب النار أفضل فى التعامل معها .

ألف لمــاذا ولمــاذا ؟

مشكلة هذا العالم أنه فقد قدرته على الدهشـة ، فقد قدرته على أن يشعر برقة الأشياء وجمالها ، فقد قدرته على النظر حوله والإحساس بغرابة الخلق والمخلوقات وإبداع الخالق ، لم يعد فى استطاعته أن ينظر ويفاجأ بوجود شيء ما ، ويبدأ فى التساؤل عنه . مشكلة الناس من حولنا أنه ما من شيء عاد يثير فضولهم أو خيالهم ، لم يعد بزوغ الشمس وسط سماء صافية يفجر فى قلوبنا الإحساس بالتفاؤل ، ولم يعد غروبها يملأ أرواحنا بنفس الإحساس القديم بالحزن الصافى وهذه الأشجان الهادئة لأن عصفورا فى مكان ما قد انكسر جناحه ، فلم يعد قادرا على الطيران وبذلك نقص عدد المحلقين فى سماء الله واحدا .

لماذا لم تعد أشجار الياسمين تتفتح تحت نوافذ البيوت الواسعة القديمة ، لماذا لم تعد هناك أشجار للفل فى الحدائق ، أشجار تتفتح فى ضوء القمر ، فينتشر عبيرها مع كل نسمة هواء ليلية ، حاملا معه إليك رسالة من الذكريات حول موقف سبق أن كانت الحبيبة فيه تلتفت إلى اليسار ، فتعكس التفاتتها عطرا غير مرئى كعطر شجرة فل ..

ما الذى يحدث ، ومن أين أتت تلك القسوة فى قلوبنا وفى عيوننا ؟ ! ومن أين جاءت كل تلك الآلية فى مشاعرنا وأحاديثنا وتصرفاتنا ؟ ! .

أين ذهبت التلقائية والبساطة : أين اختبأت العذوبة وتوارى الصدق ؟ ! لماذا نضبت ينابيع الحب فى القلوب وصارت الدموع وقفا على آلام الفراق ومأساة الموت ؟ ! لماذا لم نعد نبكى من التحنان والصفاء ، ولمجرد شكر الرحمة الخالقة أنها خلقتنا لنشهد آيات الإبداع فى الكون والإنسان .

ألف لماذا ولماذا .. ربما كانت أخطر علامة استفهام هى التى تقول :

لماذا لم يعد عطر الوجه المغسول بالبراءة هو أغلى العطور ؟ لماذا تقدمت عطور معلبة فى زجاجات ومصنوعة من أعجب المواد وأشدها التصاقا بالرائحة الكريهة ؟ .

ضحك صديقى بقليل من المرارة وقال : أنت تضحك حين تتحدث عن البراءة ، نحن نعيش فى مياه النصف الثانى من القرن العشرين ، وهى مياه بحر تكذب فيه الأسماك وتغمز بأعينها وتخدع العشب ولا تحترم شيبة الحيتان ، وليس هناك لؤلؤ طبيعى ، كل المحارات صارت تكذب ، وحين تكذب المحارات تبدأ فى صناعة اللؤلؤ الصناعى ، واللؤلؤ فى صدر الفاتنة صناعى ، وابتسامتها صناعية ، وشعرها ليس شعرها إنما هو مصنوع من البترول ، لقد اكتسح البترول العالم : وتدخل فى كل شيء وأخضع كل شيء وتحول إلى ملابس وأكواب وشعر

وروائح ، وليس هناك حل من الموج القادم إلا أن تبحث عن سفينة نوح ، فهى وحدها التى ستنجو إذا قام الطوفان ، ولست أنصحك بالتفتيش كثيرا عن سفينة نوح فى قيعان الوديان أو قمم الجبال ، وربما كانت سفينة نوح موجودة داخلك وأنت لا تعلم .

لماذا يريد تسلق الجبل ؟

حين سئل المستكشف البريطانى (جورج مالورى): لماذا يريد تسلق جبل إفرست والوصول إلى أعلى قمة فيه؟.. أجاب قائلا : أريد تسلق الجبل لأنه موجود .

وقد قدر لهذا المستكشف أن يموت فيما بعد على قمة الجبل ..

وحين سئل جون كيندى خلال إحدى زياراته لجامعة من جامعات الغرب : لماذا يريدون غزو الفضاء ؟ كانت إجابته : حسنا .. إن الفضاء موجود ، وسنقوم نحن باختراقه ..

هذه الروح التى نراها واضحة فى الغرب هى السر فى جرأة الغرب وتفوقه ومن الخطأ أن نظن أن هذه الروح تنطوى على المغامرة فقط ، إنما هى شيء آخر وراء ذلك ، إن التحدى الذى يثيره الجبل أو الفضاء أو البحر عند إنسان الغرب هو الذى يحرك الحياة ويدفعها دائما للاكتشاف والارتياد والرغبة فى إخضاع عناصر الحياة وقوى الكائنات .

هذه الروح الواضحة التى تقوم عليها حضارة الغرب ، ما الذى يقابلها عندنا فى الشرق ؟

نحن نعيش فى عصر مشهور بالمعرفة ، فى زمن معروف بالتقدم ، فى ظروف سياسية قانونها الأعلى هو القوة .

وتقوم حضارة الغرب على اعتبار أن المعرفة والتقدم

والقوة هى الفضائل الثلاث التى لا تصلح الحياة إلا بها ، وقد انطلقت حضارة الغرب من هذا المثلث .

ومن المعروف اليوم - علميا - أن الشرق هو مصدر هذا المثلث ، كما أن اعترافات علماء الغرب وكتابه ، تكشف عن مصدر هذه الفضائل الثلاث .. هذه الفضائل هى الروح التى بعثتها حضارة الإسلام ، وقد أخذ الغرب هذه الروح فتقدم ، على حين أخذ الشرق المظاهر والقشور دون الروح فتأخر .. وعلى حين خرج الغرب من منطقة التأمل إلى مجال الحركة ، عاد الشرق من مجال الحركة إلى بخور التأملات التى تقترب من السهوم ، وتختتم بحكمة تامة مثل قولنا : ما أغرب الدنيا .. أو ما أعجب الحياة

لننظر فى حياة الشرق الواقعية اليوم ، نحن أمام نموذجين سائدين ، إما إنسان ابتلته الحياة بثراء بالغ فهو يتحرك جاهدا لإرضاء هواه ، وإما إنسان سجنته الحياة وسط فقر بالغ فهو يتسلق الجبل من أجل لقمة العيش ، أو أملا فى حسنة يجدها عند القمة .. ومع غياب النموذج الإنسانى المرتاد المستكشف ، ركدت حياة الشرق وتوقفت ، وليس صحيحا أن الإنسان مخلوق ليأكل ، أو موجود فى الدنيا ليشرب، يتساوى الإنسان فى هذا مع كائنات أقل كالفأر والسلحفاة ، إنما يصير الإنسان إنسانا حين يعى معنى الآية الكريمة ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ ، والاستعمار فى الآية يعنى اكتشاف المجهول وإخضاعه وذلك احد أسرار خلق الإنسان وتكريمه .

فى الإنسان .. والحياة

لو اختزلنا الخمسين ألف سنة الماضية من تاريخ الإنسان المدون ، إلى فترة زمنية لا تزيد على خمسين عاما ، فسوف نكتشف أننا لا نعرف سوى القليل جدا عن الأربعين سنة الأولى ، باستثناء أواخرها ، عندما تعلم الإنسان المتطور استخدام جلود الحيوانات فى تغطية جسده ، ومنذ مايقرب من عشر سنوات – بحساب الاختزال – خرج الإنسان من كهفه ليبنى لنفسه مأوى من نوع آخر ، ومنذ خمس سنوات فقط تعلم الإنسان الكتابة ، كما تعلم استخدام عربة ذات عجلات ، بعد أن شاهد كيف تتدحرج الشجرة وهى تهوى من أعلى الجبل إلى سفحه ، منذ أقل من عامين – بنفس حسابنا – بدأت المسيحية ، بعدها بنصف عام بعثت رسالة الإسلام ، وظهرت آلات الطباعة هذا العام ، ومنذ ما يقل عن شهرين أمدنا البخار بمصدر جديد للطاقة ، كما اكتشف نيوتن قوانين الجاذبية ، وفى الشهر الماضى أصبحت الأنوار الكهربائية والتليفونات والسيارات والطائرات فى متناول اليد ، وفى الأسبوع الماضى فقط بدأ انتاج البنسلين بعد أن اكتشفه (فليمنج) فى رغيف خبز متعفن ، وبدأ مع البنسلين إنتاج التليفزيون والطاقة النووية .. ومنذ ثوان وصلت أول مركبة فضاء إلى القمر .

نحن إذن نعيش فى عصر لانرى إلا لحظاته الأخيرة .. ولقد كان تطور الإنسان منذ ظهور الثقافات والكتابة بالغ

السرعة ، ورغم هذه السرعة التى يصعب معها إصدار حكم نهائى فقد بقيت حقيقة لا يمكن إنكارها ، هذه الحقيقة : إن أى تغيير يقع فى الحياة ، لابد أن يسبقه تغيير داخل الإنسان .

يثبت تاريخ التقدم الإنسانى هذه الحقيقة ، كما يثبت أن أى محاولة لتغيير الحياة قبل تغيير الإنسان هى محاولة مصيرها الفشل .. يأتى الإنسان قبل القانون والنظام والإصلاح والتطوير ، وبدون الإنسان تتحول أعظم الإصلاحات إلى مظاهر وقشور تخفى تحتها الخلل ، ولقد كانت عظمة الأنبياء ورجال الإصلاح والعباقرة وكل العاطفين على الجنس البشرى نابغة من إدراكهم لما يستطيع الإنسان عمله لو تغير .. وتغيير الإنسان يحتاج إلى أن نوقظ داخله الخير النائم والجمال المتخفى ، والوداعة التى لاتدرك قوتها الكافية ، ولقد نجحت أنظمة كثيرة فى بناء صناعات رهيبة ومتفوقة ، ولكنها لم تلبث أن انهارت ؛ لأن الإنسان كان مجوفا من داخله ومليئا بأفكار لا تليق بالإنسان قبل تصوره أنه أرقى عرقيا أو أفضل جنسيا أو أذكى وراثيا ، وأمامنا تجربة الحرب الكونية الثانية ، فقد انهزم النظام النازى رغم توافر القوة الجبارة له ، لأن القوة – أى قوة – حين تخلو من الوداعة والجمال والخير لابد أن تنتهى إلى تحطيم نفسها .

إذا كنا نحلم بتغيير الحياة ، فيجب أن يبدأ حلمنا من داخل النفس الإنسانية .. وتغيير الإنسان من داخله لايتم إلا اذا أضأنا الأنوار داخله ..

وهذا هو التحدى المطروح اليوم .

تأملات فى الحياة والموت

يعرف الإنسان على الأرض آلاف الأشياء ، ويكتشف كل يوم أسرارا ، للمادة وأسرارا للنفس ، ويعرف الإنسان عن طبيعة المواد وخصائصها ملايين المعلومات ويملك الإنسان تسخير الماء للسير فوقه ، وتسخير الهواء واجترافه ، كما يملك تفجير الطاقة والصعود للقمر .. يملك الإنسان كل هذه المعرفة ، ويعرف كل ما يملكه باستثناء شيء واحد ..

متى يموت ؟

لا يعرف الإنسان متى تجيء تلك الهزة الأثيرية التى ينطفيء فيها النفس الأخير سواء كان شهيقا أو زفيرا ..

أخفى الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة عن النوع الإنسانى .. قال تعالى ﴿ **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ .

وهذا الخفاء المدثر بالخفاء رحمة من الله تعالى بالنوع الإنسانى ، فإن الإنسان لو عرف متى يموت ، فإن هذه المعرفة يمكن أن تجمده بالرعب فى مكانه ، ولا تسمح له بالحركة ، ورغم أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى الدنيا ، وما

عداها من صور يخضع للشك ، نرى الناس تنسى هذه الحقيقة أكثر مما تنسى أى شيء آخر ، وفى الموت رغم نسياننا له شيء فاجع غامض ، فنحن لا نعرف كيف ندفن فى التراب ، من كان يمسح التراب عن كم قميصه ، ونحن نجهل طبيعة الموت وما بعد الموت ، ورغم جهلنا لهذه الحقائق الأساسية ، نعرف عن الموت حقائق أساسية أخرى ، فهو حق بينما الدنيا حق يلتبس بالباطل ، وانفراد الموت بالحق يعنى أنه مملكة حاكمها الوحيد هو الله .. وأى نسمة تموت تعود إلى الله ، ترجع روحها إلى الله ، وتنزل ضيفة عليه سبحانه ، وعلى المستوى الإنسانى نعرف أن للضيف على مضيفه حق الإحسان والإكرام والتجاوز عن الخطأ ، فكيف تكون الحال إذا كان المضيف هو ذو الجلال والإكرام ؟ .

والحياة والموت صورتان من صور الخليقة لهما هدف واحد ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾ الحياة فترة اختبار ، والموت ناقوس يدق بتسليم أوراق الإجابة والانصراف ، والهدف هو معرفة « أيكم أحسن عملا » . وتصديق أنه « العزيز الغفور » ولذلك يقول العارفون بالله : موتوا قبل أن تموتوا .. والمعنى دعوة إلى أن يموت الشر داخلنا قبل أن تنتهى فترة الاختبار وتضيع الفرصة ، وفن الموت قبل الموت صعب ، وقليل من الناس من يعرف أسراره ، ولكنه هو الطريق الوحيد المؤدى للحياة النقية ، وهو طريق يجدر ببنى الإنسان أن يجربوه .

متى تضىء الشمعة ؟

يملك الإنسان قوة داخلية أكبرِ بكثير مما يظن .. وليس الإنسان هو مجرد استخدام عقله .. كما يعتقد « باسكال » أن ملكة الفكر هى كل شىء .. الإنسان فى حقيقته أعقد من ذلك وأشد تركيبا ..

وقديما قال « هـ . ج . ويلز » : إن الطير مخلوق الهواء ، والسمكة مخلوق الماء ، والإنسان مخلوق العقل .. ويصرف الإنسان معظم حياته مشدودا إلى التوافه التى تمر به فى حياته اليومية ، ولهذا تضعف حياته الداخلية ، وتصير إلى حالة من الوهن ، مثل شمعة فى ضوء الشمس .. ولكن هناك لحظات خاصة يملك فيها عالم الإنسان الداخلى قوة غريبة ذاتية .. فتصبح الشمعة أكثر نورا ..

متى تصبح الشمعة أكثر نورا .. ؟

حين يتكاثف الظلام وتختفى الشمس .. حين تبدأ التحديات فى إلقاء ثقلها على الإنسان ..

وهكذا تبين الإنسان سخافة نظرية (هيوم) فى أن حياة الإنسان العقلية ليست أكثر من نسخة بالكربون لذكرياته ومقدرته على الملاحظة ..

كلا .. إن حياة الإنسان العقلية لم تعد كذلك ، ولم تكن أبدا كذلك .. ان حياة الإنسان العقلية مستقلة بطريقة

غريبة ما ، وهى تقف وحيدة ، وتملك القدرة على رفع الإنسان إلى أعلى ، حيث يتحول من مجرد ريشة تتحرك فى الهواء ، إلى مخلوق يملك القدرة على الخلق والإبداع داخل كل إنسان منا هذه القوة الداخلية الهائلة .. وهى قوة أبدعت الفكر الإنسانى .. وصنعت تقدمه .. وأخرجت لنا روائع الآداب والفنون ..

يقول « فيخته » : أن تكون حرا ، فهذا لا شيء .. أما أن تصبح حـرا فهذه هى الجنـة ... يـريـد الفيلســوف الألمانى أن يقول : إن الحرية لا تولد مع المرء ، وانما تصنع بالجهد والثورة ، وهذا التحدى الذى يرد على الإنسان هو نفسه الصعاب التى توضع فى طريقه ، وهو نفسه الظلام الذى يتكاثف حوله من أجل أن تشتعل الشمعة الداخلية وتنير ..

وأقصى ما يمكن أن يصيب إنسان العصر الحديث ، هو مرض النوم أثناء السير .. لا نقصد النوم المعتاد ، وإنما نوم هذه القوى الباطنية العظيمة ..

وكثيرا ما تنعس روح الإنسان ، بينما جسده يتحرك ويمشى ويذهب ويجيء ..وليست هناك قوة تقدر على إيقاظ الروح الإنسانى سوى الحب .. الحب الذى يخلقه الإيمان بإله واحد ، وحب واحد ، وفى الحب ألف سر وسر ، وكثيرا ما يكشف الحب عن قواه ويحرك الإنسان للرد على التحدى ..

وليس هناك ، كما قيل ، سوى هذا الروح .. هو وحده الذى يهب على الصلصال فيتحول من طين إلى إنسان .

مفاتيـــح .. ومغاليــق

كلما كبر الإنسان وزادت همومه ، زاد عدد المفاتيح التى يحملها فى جيبه ، وأنا أحمل فى جيبى ربطة من المفاتيح يزيد وزنها على الحد المقرر ، هناك مفتاح بيتى ومفتاح بيت أبى ، ومفتاح الشنطة التى سرقت ، ومفتاح الدولاب ، ومفتاح المكتب ، ومفاتيح المكتبة ، ومفتاح السيارة ومفتاح الطيارة ، وأكثر من خمسين مفتاحا منها الأصفر والأبيض والسمين والرفيع والطويل والقصير ، ومعظمها مفاتيح لا أعرف ماذا تفتح ، ولا أستطيع إلقاءها فى النيل لأنها يمكن أن تكون مفاتيح مهمة نسيت أهميتها ، وقد لاحظت أن المفاتيح تقيد حريتى تماما ، وكلما حملت عددا أكبر من المفاتيح زاد إحساسى بكثرة المغاليق ، وانعقد داخلى الإحساس بالإرهاق والبؤس .. وعندما أدخل بيتا من البيوت التى أدخلها مثل بيتى أو بيت أبى ، أقف نصف ساعة أمام الباب للبحث عن المفتاح المناسب للقفل المناسب ، وذلك عمل شاق يشبه وضع الإنسان المناسب فى المكان المناسب : وأزداد إرهاقا فوق إرهاق ..

وقد لاحظت حين أسافر خارج مصر أننى أترك مفاتيحى فى مصر ، وفى اللحظة التى أعطى فيها ظهرى لجميع المفاتيح ، أحس أننى حر ..

انتهى الأمر ولم أعد مقيدا بالأمكنة والبيوت والحجرات والدواليب والمكتبات والمكاتب .. لم أعد مقيدا بشيء ، سقطت الأغلال حين سقطت العلائق ، وتحرر الإنسان حين ذهب حرصه على الأشياء والأماكن ..

وهذا جوهر الحرية .. قطع العلائق واليأس مما فى أيدى الخلائق ..

وأعظم الناس سجنا هو أعظم الناس حملا للمفاتيح ، وللمفاتيح نفس العبء سواء كانت مفاتيح كنوز من الذهب والجواهر ، أو مفاتيح كنوز من الهموم والمتاعب ..

وقد حكى القرآن الكريم قصة قارون ، وحكت الآيات أن مفاتيح كنوزه كانت تنوء بها العصبة أولو القوة ، [لايستطيع حملها إلا عديد من الرجال] ، وكان يخرج على قومه فى زينته فتمر الخيل وعليها سروج الذهب ، وتسطع الشمس على الذهب والجواهر ، ويزيد ثقل المفاتيح ، زاد ثقلها يوما حتى أخذته وغارت به فى بطن الأرض ..

كان قارون سجينا فى الدنيا ، وكان الناس يتمنون ما عنده ، ثم ابتلعته الأرض فأدرك الذين تمنوا مكانه أنه كان سجينا وهم أحرار ..

ثمة طريق واحد للحرية ..

التخلى عن مفاتيح الدنيا ، فهى سجن وإن كان جيد الإضاءة .

التصـــوف العقـلى ..

يعرف الأطفال أن من السهل نفخ بالونة حتى تصير فى عشرة أضعاف حجمها،فهل يستطيع الإنسان أن ينفخ فى وعيه حتى يتمدد ويتسع نظره للكون كله .. هل هذا ممكن .. هل هذا الاتحاد بالحياة ممكن .. إن هناك كاتبا غربياً هو كولن ولسن يعتقد فى جواز ذلك ، وقد كتب كتابه « الشعر والصوفية » لإثبات رأيه ، وليس هذا الكاتب صوفيا ، فهو يملك عقلا باردا محايدا شديد القدرة على التحليل والتأصيل ، رغم ذلك فهو يتصوف بعقله .. وهو يعتقد أن معانقة الكون كله ، ورؤيته كله ، أمر ممكن للانسان إذا استطاع أن يصل إلى نفس الحالة التى وصل إليها شاعر اليونان الفطن كازنزاكس حين قال ..

« فى الغابة المنعزلة قابلت نمرا .. ففرحت به وصحت .. يا أخى . » ليس الشاعر مبالغا بكلمته ، فإن فى الحب قدرة

على كسر شر أعتى الخلائق .. والحب لا يملكه سوى الأحرار .. وقديما قال فيخته « أن تكون حرا .. هذا لاشيء .. أما أن تصبح حرا فهذه هى الجنة بعينها » ..

يريد أن يقول إن الحرية لا تكون ... فإن كنت ولدت لتجد نفسك حرا فهذا معناه لا شيء و إنما تكتسب الحرية بالضرورة .. بأن تصبح حرا بعد أن كنت عبدا لنفسك أو رغباتك أو شهوات عقلك . هل يمكن أن يقال إن لونا جديدا من ألوان التصوف العقلى يولد فى عصرنا ؟ .. هل يمكن الذهاب لهذه الفكرة ، بينما التصوف تجربة روحية لاكسب عقلى ؟ .. الحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال تعنى اكتشاف سر الروح والعقل وعلاقة أحدهما بالآخر ، وهو سر لن أكتشفه أنا على الأقل ، والإنسان أعقد من أن يكون روحا فحسب أو عقلا فقط أو جسدا ناطقا ، الإنسان تركيب معجز معقد رائع التعقيد ، وإذا كان الوجدان يستطيع أن يصل إلى الله عن طريق التجربة الروحية الغامضة ، فإن العقل يلعب دورا فى ذلك ، وهو دور نجهله ويحاول بعض كتاب الغرب اكتشافه اليوم ، وعى الإنسانى يمكن أن يتمدد مثل الكون مثل فقاعة الصابون .. وفى التمدد تتسع الرؤية .. وتكثيف الوعى ممكن ، وسمو الإنسان على جسده ممكن ، والإحساس بالذات يمكن أن يخلق فى الإنسان قدرة على التأمل .. والإغراق فى التأمل يمكن.

هى حقائق ممتعة على أى حال .

المـرء يبصـر بقلبـه

منذ ١٤ قرنا من الزمان ، أشار القرآن الكريم إلى حقيقة من حقائق الوجود الإنسانى ، حين تحدث عن « الإبصار والرؤية » ، وربطهما بالقلب لا بالعين .. قال تعالى: **﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾** ..

وفى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، بدأت الآداب الأوروبية تكتشف ما سبق إليه القرآن منذ ١٤٠٠ سنة ، وكتب أحد كتاب فرنسا « سانت اكسوبرى » يقول : « العين عمياء ، والمرء لايستطيع أن يبصر إلا بالقلب » ..

والإبصار بالقلب ينطوى على معان بالغة العمق ، فالعين – كآلة التصوير الفوتوغرافية – لا تلتقط سوى صورة الشكل الخارجى ، والشكل الخارجى ليس هو الحقيقة الباطنة ، وربما كان فى الشكل الخارجى مايجرح العين أو يزرى بصاحبه ، ربما كان الباطن صفاء مقطرا ووداعة كامنة ، ومن معانى الإبصار بالقلب .. أن ننظر إلى الناس بعين الحب ، لأن القلب هو موطن الحب ، ولو كنا ندرب أنفسنا على النظر بعين القلب أو بعين الحب ، فسوف نرى الناس لا كما هم فى الحقيقة ، وإنما كما يحاولون أن يكونوا ، وكما يحبون أن يكونوا ، ومثل هذه النظرة تعنى القدرة على رؤية الجوانب الرائعة فى الإنسان ، وليس هناك إنسان خلقه الله تعالى خلوا من جوانب

طيبة أو خلوا من موهبة ، وكثيرا ما تموت المواهب لأن أحدا لا يرعاها ، مثلما تموت الزهور الرقيقة وسط العواصف والثلوج .. ويعتقد الشاعر الإنجليزى (أودين) أن وظيفة الفنان أن يهتدى إلى النظام الكامن فى الفوضى الظاهرة ، أو الجمال المختفى وراء أسوار القبح .. ولكى يصل الفنان لذلك يحتاج إلى استخدام قلبه كأداة للنظر إلى الأشياء ..

فى لقاء بين أحد علماء الفلك الأوروبيين وعربى فى الجزيرة العربية ، أنشأ الفلكى يتحدث عن عدد النجوم الهائل ، وأبعادها الرهيبة ، واتساع الكون وامتلائه ، وحين انتهى قال له العربى : « أنتم ترون نجوما كثيرة ولا ترون شيئا وراءها ، ونحن نرى نجوما قليلة ونرى الله تعالى وراءها » ..

وربما كانت هذه العبارة هى الفرق بين النظر بالعين والرؤية بالقلب .. وهناك فروق كثيرة بين البصر والبصيرة ، كما يحدثنا الصوفية .. أبسطها أن المرء حين ينظر بقلبه يرى الانسجام وراء الفوضى ، ويرى الأمل يولد من اليأس ، ويرى الجمال رغم عباءة القبح .. وحين يملك الإنسان القدرة على الرؤية بقلبه ، يحس أن فى الكون جمالا غامضا ينبع من سجود الكائنات لله ، ويسود الانسجام نفس الإنسان ، وعندئذ يسود الانسجام الحياة ذاتها ..

إن البداية من النفس هى البداية الوحيدة الصحيحة .

لايكون الصدق كالصدقـة

كل شيء فى الدنيا مستويات ودرجات .

حتى الفقر درجات ، أبسط درجاته خلو اليد من المال أو خلو العقل من الفكر وهذا هو الفقر الذى عناه على ابن أبى طالب كرم الله وجهه بقوله : لو كان الفقر رجلا لقتلته . ويقف الإسلام ضد هذا الفقر ، لأنه يكسر انسانية البشر ويذل كبرياءهم كبشر وقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله : إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد . وهناك فقر من نوع آخر ، فقر تمتلىء فيه اليد بالمال ، ويخلو فيه القلب من الرحمة ، فيكنز الإنسان الذهب والفضة وقد خلقهما الله للتداول ، وأمثال هؤلاء الفقراء الأغنياء لهم عذاب أليم تحدثت عنه آيات القرآن :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ..

ينقل الهجويرى أحد علماء الصوفية فى القرن الخامس الهجرى عن بعض شيوخ العراق حكاية وقعت بين الجنيد وابن عطاء، قال ابن عطاء:إن الأغنياء أفضل ، لأنهم يحاسبون يوم القيامة ، وفى الحساب يكون كلام الله بلا واسطة فى محل العتاب ، والعتاب يكون من الحبيب للحبيب .

وأنكر الجنيد مايقوله ابن عطاء .. وقال : إذا كانوا يحاسبون الأغنياء ، فإنهم يعتذرون للفقراء ، والعذر أفضل من عتاب الحساب ، ويعلق الهجويرى على هذا الحوار بقوله : إنه فى تحقيق المحبة يكون العذر غربة ، والعتاب مخالفة ، والغربة والمخالفة آفتان من آفات الحب ، والحب الحقيقى لاينطوى على الغربة ولا مجال فيه للعتاب ، وينظر الهجويرى فى أحوال الخلق فيرى أن كل الناس فقراء إلى الله بنص الآية : ﴿ **يآأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ ويرى أنه قد ظلم من سمى ابن آدم أميرا وقد سماه ربه فقيرا ، وهلك من يظن أنه غير أسير ، وان كان مكانه تخت الملك أو سرير الحكم ، وأجمل ما يقوله الهجويرى فى كتابه كشف المحجوب أن الأغنياء أصحاب صدقة ، والفقراء أصحاب صدق .. ولايكون الصدق أبدا كالصدقة .

تبدو هذه الكلمة فى كتاب الصوفى مثل لؤلؤة تختبىء فى محارة .. واللؤلؤ كما تعرف اليوم ليس غير آهة من آهات الألم تصدر من المحارة حين يقتحمها جسم غريب ، ومازالت العلاقة بين اللؤلؤ والألم من الأمور الغامضة فى الحياة . وأعظم

الآداب والفنون هو فى نهاية الأمر يتجه للزواج بين الألم والعذوبة .

الفقر أعظم من الغنى إلا إذا تجرد الإنسان فى كل أحواله من نفسه وألقى روحه على بساط الرحمة وسجد .. عندئذ يتحول غنى نبى كسليمان إلى فقر عبد كأيوب .. قال الله تعالى لأيوب فى صبره ﴿ **نعم العبد** ﴾ ، وقال لسليمان فى استقامة ملكه ﴿ **نعم العبد** ﴾ .. فحين خرج سليمان وأيوب من نفسيهما تماما وتجردا لله ، حصل رضا الرحمن وصار الفقر كالغنى .. أليس هذا ارتفاعا يثير الدوار ؟ !

في الخير والشر

لم يكد الله عز وجل يخلق الإنسان ، حتى ولد فى نفس اللحظة إبليس بصورته الجديدة المعاندة بمعنى أن الشر قديم فى نسيج الحياة ، ويدين بوجوده للأيام الأولى فى الخلق ، وليست كل الأشياء المرئية فى الدنيا سوى أقنعة من الورق المقوى ، ووراء هذه الأقنعة نسبة من الشر غير المرئى ، ومن المدهش أن الشر غير مرئى ، فإن أحدا لم ير إبليس حتى اليوم ، ورغم ذلك فإن آلاف الجرائم التى تقع على غلاف الكوكب الأرضى تؤكد أنه موجود فى الهواء ، وفى دم الإنسان وفى غرائزه وتلافيف عقله .

والشر قوة غاضبة يبعثها حقد مبهم ، وحقيقة الشر أنه تحطيم للإنسان ، حتى لو تصور الإنسان أنه يكسب من ورائه ، ولقد استخد القرآن الكريم لفظ الكسب وأضافه للسيئات . « بلى من كسب سيئة » ، وجوهر تحطيم الشر للانسان مفهوم بعد قصة آدم وإبليس ، وعداء إبليس العريق للانسان .

ويبدو الشر – من النظرة الأولى – أقوى من الخير ملايين المرات ، فحزبه هو الأغلبية ، ودعاته أكثرية ، وهم لايتكلمون كثيرا وإنما يعملون ، وقديما لاحظ المعرى أن دعاة الشر ناطقة بينما الخير صامت خائف .

مالى رأيت دعـاة الشر ناطقــة
والرشد يصمت خوف القتل داعوه

وليس صحيحا أن الشر فى عصرنا قد زاد على عصر المماليك أو عصر الأتراك أو عصر الفاطميين أو عصر قدماء المصريين .. ليس صحيحا أن الشر يزيد ، الصحيح أن الشر يغير أقنعته ويغير ملامحه ويرتدى أحدث أزياء العصر وأخطر نقاط ضعفه هو استسلامه للموضة ..

ونحن نشكو من الشر .. والشر يسعده أن يشكو منه الخير ، لأن كثرة الشكوى دليل على خيبة الخير وقلة حيلة رجاله .. ومن المدهش أن الذين يقفون إلى جانب الخير ليسوا منظمين ولا مدربين كرجال الشر ، أيضا يختلفون على التفاصيل والأسلوب ، وأى نظرة على معكسر الشر تؤكد أن الشر يدرب رجاله ، ويعلمهم تقاليده فى القتال ، مستمتعا بحرية أوسع وانطلاق لا نهائى ، معتمدا على تحققه من حمل الأخلاق والمبادىء .. مستخدما أسلحة لاتخطر ببال أصحاب الخير أو جنوده .. أما معسكر الخير فيحمل رجاله على أكتافهم مبادىء ثقيلة ، وحركتهم أبطأ فى القتال ، وأسلحتهم مقيدة بالشرعية ..

ومن الغريب أن الشر فى الدنيا هو صاحب الصوت الأعلى .. وهو صاحب الجند الأقوى ، ورغم قوة الشر ووداعة الخير ينصر الله الخير فى النهاية ، وهذا سر الخير ومعجزته فى نفس الوقت .. ولكن هذه النتيجة تحتاج من حملة الخير ودعاته إلى جهد لايقل عن جهد شهداء الباطل .

القرود الحكماء الثلاثة

أنا من هواة التماثيل المصنوعة من الخشب ، مادة الخشب نفسها من المواد التى أحس بينى وبينها بالتجاوب ، وقديما كنت أحب قريبة لى ، وكانت جـوار بيتها شجرة ، فكـنت أحب الشجرة بحبى لها ، فلما هجرتنى ذهبت إلى الشجرة واستندت عليها وتهيأت للبكاء ، ثم لاحظ عسكرى أحد الوزراء الساكنين فى المنطقة أننى سأطيل الوقوف فأمرنى أن أمشى ، وهربت دموعى ومشيت ، وحرمت حتى من مشهد آخر مؤثر .. وبسبب حبى للأخشاب فكرت يوما فى أن أقوم بتجليد حجرة مكتبى فى البيت بالخشب ، وسألت عن الأسعار فإذا هى ألف دينار فتراجعت مكتفيا بأن المكتب من الخشب وأن القبقاب من الخشب ، وفوق مكتبى تماثيل خشبية كبيرة ، منها تماثيل لحيوانات وتماثيل لآدميين ، من تماثيل الحيوانات ثلاثة قرود من خشب الأبنوس ، نحتها رجل أفريقى فى مستشفى للأمراض العقلية فى مدينة (بنين) ، أى أن الفنان يجمع جنونين معا ، جنون الفن والجنون العادى،أحد القرود يخبىء عينيه ، والثانى يسد فمه بيده ، والثالث يسد أذنيه .

لا أسمع شرا .. لا أرى شرا .. لا أقول شرا .. هذه هى حكمة القرود الثلاثة ، واضح أن هذه القرود لا تعمل بالصحافة مثلى ، هى قرود حكيمة ، والحكمة اليوم أندر من عنبر الحوت الأبيض ، وحكمة إغلاق الأذن والفم والعينين عن رؤية الشر تعنى إغلاق الحواس عن الشر ، وتعنى إضاءة مصابيح الراحة داخلنا ، ونحن مرهقون ونبحث عن الراحة .

وليست الراحة هى الاتكاء على فراش صنعت مخداته من ريش النعام ، وإنما الراحة أن تتكيء نفس الإنسان داخله وتمد قدميها فى وجه القبح والشر والنفاق والكذب والخديعة .. وهذا مطلب بالغ الصعوبة ، ولكن القرود الحكيمة حققته ، ونحن نعرف أن الإنسان ليس ماهرا كالقرود ، ولكنه يستطيع أن يحاول،ونحن لا نحاول أبدا أن نقاطع الشر .. نستمع لآلاف القصص الكاذبة ، ونرى القبح فى الجمال ونتخصص فى استخلاصه منه ، والمفروض أن يقع العكس ، أشار أصحاب عيسى عليه السلام إلى كلب ميت وتحدثوا عن سوء رائحته فحدثهم عن بياض أسنانه ، ولو استطعنا أن نرى الجمال حتى وراء ستائر القبح لصارت الحياة شيئا محتملا ، وبغير الحكمة تتحول الحياة إلى غابة لا تختلف عن الغابات فى القسوة والتهام القوى للضعيف ، ولا تتحقق الحكمة إلا إذا سددنا آذاننا عن الشر ، وأفواهنا عن الشر ، وأعيننا عن رؤيته ..

وهذا كله ممكن بشيء واحد يسمونه الإيمان .

أيهما أولا .. العقل أم الذكاء

هناك فرق هام بين الذكاء والعقل ، وهو فرق لايتبينه كثير من الناس ، ولهذا يقعون فى الخطأ ، والذكاء هو سرعة الالتقاط ، والقدرة على التكيف السريع مع أى موقف طارىء .. أما العقل فهو القدرة على وزن الأمور والوصول إلى وجه الحق ، كما أنه القدرة على المعرفة بمعناها الشامل أو المتخصص ..

والمصرى إنسان ذكى ، وهو يستطيع أن يعمل مع الجن الأزرق ، ويستطيع أن يضحك على عقل الجن الأحمر ، والقدرة على التكيف من صفات المصرى ، (والفهلوة) هى سلاحه حين يخذله المنطق ، (والفهلوة) فى أصلها البعيد هى علاج الامور الكبيرة بأشياء صغيرة تصلحها مؤقتا ، وإن كانت تهلكها فيما بعد ..

والمفروض أصلا ألا يكون هناك تعارض بين العقل والذكاء .. لأن الذكاء تابع للعقل ، فإذا وقع التعارض بينهما وبدأ الصراع ، كسب الذكاء المعركة ؛ لأن الذكاء حين يتحرر من أثقال المعرفة والمسئولية ، يستطيع أن يسرع فى خطوه فيسبق العقل بمراحل ..

لنفرض أن عالما من علماء الفضاء أو الذرة أو الحاسبات الالكترونية سافر وتعلم وصار خبيرا دوليا ثم عاد إلى قريته الريفية فى مجاهل الصعيد ، حيث يؤمن الناس أن الدنيا محمولة على قرن ثور ، وأن الزلازل والبراكين تحدث عندما يعطس الثور الذى يحمل الدنيا ..

لو حدث هذا فهل يجد هذا العالم الدولى مجالا للحياة فى قريته ؟ .. هل يحتاج إليه أحد من أهل القرية ؟ .. هل يستخدمه أحد ؟ سنفترض أن أهل هذه القرية من الأذكياء ، الذين يلتقطونها وهى طائرة . سنفترض أن أهل القرية يستطيعون التكيف مع أى موقف طارىء أو مشكلة .. هل يمكن أن يتم التعايش بين العقل المتخصص ، والذكاء الخرافى ... ؟

الجواب عن هذا السؤال غاية فى السهولة : لن يستطيع هذا العائد من الخارج أن يعيش فى قريته ، وأغلب الظن أنه سيهجرها للعمل فى القاهرة أو أى مدينة أوروبية أو أمريكية وهذا معناه بقاء القرية على حالها وسط الجو الخرافى الذى تعيش فيه ، وهذا معناه أننا ننزف الكفايات العقلية .. وسيظل هذا الوضع قائما فى العالم الثالث أو النامى ، حتى يدرك هذا العالم أن إصلاح البيئة المحلية أمر لازم لتحقيق التقدم .. إن الحياة لاتتقدم بالذكاء المتحرر من العقل . العقل أولا وبعد ذلك الذكاء .

أعجـــب القضـــاة

لايأكل هذا القاضى ولا يشرب ..

ولاينطق بأحكامه على الفور ، إنما يتكلم حين يموت كل أطراف القضية ، وعندئذ يبدأ فى إصدار أحكامه ..

هذا القاضى هو التاريخ ..

وهو قاض محايد متجرد وهادىء وصارم ويرى كل شيء ..

وهو قاض يملك أعلى منصة وأقوى نظر وأحد سمع وأفصح لسان،لا يعرف مخلوقا من الأحياء ولا علاقة له إلا بالموتى ، ولهذا لايستطيع الأحياء التأثير عليه لأنه ليس من جنسهم ، ولايستطيع الموتى شراءه لأنهم موتى وقد تركوا نقودهم للورثة الأحياء .

والتاريخ قاض يعرف أسرار الوقائع وتفاصيلها الكاملة ، ويعرف ماذا كان يقع فى غرفة نوم نابليون مثلما يعرف أسرار اجتماعاته الحربية . والتاريخ قاض صموت إذا كان أطراف القضية أحياء ، إنه يسمع فقط ، فإذا دخل الأحياء إلى التاريخ خضعوا لحكمه ..

والتاريخ قاض ولد منذ ولد الإنسان ، وسيموت عندما

تموت البشرية . يوم القيامة .. وأحكام التاريخ ليست بلا نقض ، ولا يستوجب التاريخ خطأ فى تطبيق القانون لنقض الحكم ، إنما يجوز للتاريخ أن يصحح ما قاله مؤرخ بأقوال مؤرخ آخر .. وتلاميذ هذا القاضى ومعاونوه هم كبار المؤرخين وصغارهم ، ومذكرات المحكوم عليه ومذكرات زوجته وعشيقته أو غريمه فى الحب ، ويعرض التاريخ كل ما تجمع لديه من أقوال الجانى أو المجنى عليه والشهود ، ثم يعرض لك القضية ، وخلال عرضها تفهم أنت الحقيقة ، وليس هناك قضاء بشرى حتى اليوم يستغنى بعرض القضية عن الحكم فيها ، ليس هناك منطوق لحكم التاريخ ، وليس هناك حاجب يمنع عنه أحدا ، أى إنسان يستطيع أن يقدم شهادته أمام التاريخ ، ولسوف يعرض التاريخ قصة الحياة الإنسانية من واقع الشهادات ..

وللتاريخ عبرة يصح أن نذكر بها الناس .. وعبرة التاريخ أن أحدا لاينجو من أحكامه .. حتى أبسط إنسان فى أفقر النجوع يقال عنه بعد موته : كان رجلا طيبا .. أو يحس الناس بالقلق حين تجىء سيرته فيقلبون شفاههم ...

ورغم عظمة التاريخ ورهبته وعلمائه ورجاله والباحثين فيه والقارئين له ، فإنه مخلوق يولد ويموت ، وحين يموت التاريخ بيوم القيامة، ينتقل إصدار الحكم إلى رب التاريخ ورب العالمين .

قانـــون لاينكســر

تقع من المخلوقات تصرفات لايمكن تفسيرها علميا ، ولا يمكن إرجاعها لأسباب مفهومة .. مثال ذلك ما يقع من القطط حين يمسح على ظهرها أحد أو تستشعر حنانا زائدا من أحد ، إنها تبدأ فى (الور) والقراءة وتقول (أررر .. أررر .. أررر ..) وأذكر أننى حاولت البحث عن سر هذا التصرف ، وسألت أطباء بيطريين منهم الدكتور سمير سالم - لمسئول عن جمعية الرفق بالحيوان - عن هذا الصوت ، فقال لى : هو صوت تصدره القطط ، سألته لماذا تصدر القطط هذا الصوت ؟ قال : لا نعرف كأطباء بيطريين : لماذا ؟

ومضيت أتأمل فى تصرفات الحيوان والنبات .. مالك الحزين مثلا ، هذا الطائر الجميل الذى يجىء ساعة الغروب ويقف على ساق واحدة ، ويرفع منقاره إلى أعلى ويظل ساعات واقفا هكذا ؟ لماذا ؟ لا أحد يدرى .. خذ مثلا هذا الصوت الذى يصدره الحمام عندما يجىء الفجر ، هذا الصوت الجميل الرائق الذى يتجاوز طلب الطعام أو الشراب أو الجنس .. أى شىء يكون ؟

تأمل مثلا سر أشجار البنفسج التى تمنح أزكى عطورها فى الفجر .. أو سر وقوف الحيتان فى البحر جماعات وهى ترفع

أذنابها إلى أعلى مثل شراع سفينة تقوم بالصلاة وسط دموع الموج ورذاذه ، يقف العلم حائرا أمام هذه الظواهر ، يرصدها ويسجلها ولكنه لايقدم تفسيره لها ، وليس لها تفسير غير قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم** ﴾ وكثيرا ما سألت نفسى أتكون هذه الأصوات الغامضة صلاة ترفعها المخلوقات لله ؟ أو تكون تسبيحا لا يعلمه غير الله ؟ لست فى موقف من نقاء النفس يمكننى من القطع بإجابة محددة ، وقد مات سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ولم يعد ممكنا أن نعرف منه سر منطق الطير أو تسبيحه .. فى طفولتى كنت أضع يدى على رأس القطط (وأملس) على جسدها ، وعندئذ تبدأ القطط فى القراءة أو الصلاة .. فإذا توقفت عن منحها الحنان توقفت هى عن القراءة .. فإذا عدت إلى هدهدتها عادت إلى إصدار نفس الصوت الغامض المطمئن ..

وتصورت أنها تصلى ، وقامت فى ذهنى علاقة بين قدر الرحمة التى تتلقاها المخلوقات فى الأرض ، وقدر الصلاة التى ترفعها المخلوقات لله .

كلما زادت الرحمة فى الأرض زادت كمية القراءة والصلاة .. وكلما نقصت الرحمة من الأرض قلت القراءة والصلاة . وغادرت مرحلة الطفولة وتأملت كثيرا فى انطباق هذا القانون على كثير من المخلوقات ، ولاحظت أنه لاينكسر أبدا ، وأدركت يومئذ سرا من أسرار الظلم فى الأرض ..

كلما رفع أحد الرجال قدمه وضرب قطا أو كلبا نقصت كمية القراءة والصلاة فى الأرض .. وكلما وقع ظلم على أحد من البشر نقصت كمية القراءة والصلاة فى الأرض .. ولما كانت تحتاج إلى نسبة معينة من النقاء لكى يكون لدورانها معنى ، فإن تصرفات البشر تجعل دوران الأرض أحيانا بلا معنى .. وتجعل دوران الأرض أحيانا يثير الدوار والغثيان .

أى نوع من الحب ... ؟

ليست الدعوة إلى الحب فى مجتمعنا ترفا ، وإنما هى ضرورة كضرورة الخبز والماء ..

وإذا كان الإنسان – على المستوى المادى – لايستطيع الحياة دون خبز أو ماء ، فإنه بنفس الدرجة يموت روحيا إذا لم يحب ..

وفى مجتمع كالمجتمع المصرى ، يختلط الحب عادة بآلاف الشوائب ، فإذا هو فى نهاية الأمر رمز يحرق البخور عند قدمى امرأة قاسية ، تجد هناءها فى تعذيب الحبيب وتلويعه ، وكثيرا ما تعكس أغانينا هذا النزوع المريض نحو الرغبة فى التألم ..

وليس هذا هو الحب حين نطلق الكلمة مجردة ..

هذا لون من ألوان عدم النضج الإنسانى ، وذلك مرض من أمراض الحب وليس هو الحب ..

الحب فى منبعه الأول اختيار ، وأى اختيار يتطلب إرادة متحررة من أثقال التقاليد التى وجدنا عليها آباءنا ، واقتفينا آثارهم فيها ، والاختيار بداية للحب وليس هو الحب .. يبدأ الحب بعد أن نختار ، وتأخذ البداية شكل عطاء تحس فيه أنك لا تعطى ، ولو أحسست لحظة واحدة فى الحب أنك تضحى أو تعطى ، فأنت تمارس حبا له شكل التجارة ، وأى حب يختنق لو مارسه الإنسان كتجارة ..

ولا يصلح للحب أى إنسان ، وإن صلح للكراهية أكثر الناس ، لأن الحب يستوجب رقيا فى العقل والذوق والوجدان .. على حين لا تتطلب الكراهية إلا قدرة على الحقد والحسد والبغضاء ، وتلك أشياء يمكن للإنسان تعلمها فى ساعات ، أما الحب فيحتاج إلى نضج أعوام طويلة ، ومعاناة تحيل الشعر الأسود إلى لون الثلوج ، وتحيل القلب إلى بياض الحليب ..

وإذا كان التعليم ينصرف إلى عقل الإنسان فيؤتيه قدرة على وزن الأمور وفهمها ، فإن الفنون والآداب تقوم على حاسة الذوق لديه ، أما الدين فيجعل وجدان الإنسان رحبا وقادرا على فهم حكمة الوجود وسر الحياة والموت .. وبغير هذه العناصر الثلاثة : « العقل ، والذوق ، والوجدان » ، لايستطيع الإنسان أن يحب حبا حقيقيا ، وغاية ما يستطيعه أن يتبع هواه ويمضى خلف غرائزه ، مستهدفا مصالحه فقط ..

نريد أن نقول:إن الدعوة إلى الحب ضرورة حيوية ، ولكنها فى نفس الوقت ليست مسألة سهلة ، لأنها تحتاج إلى تضافر التعليم والفنون والآداب والدين معا ، من أجل بناء الإنسان .. وحين يبْدأ بناء هذا الإنسان ، ستذوى هذه الصور المريضة التى يتعبد فيها الإنسان فى امرأة تعذبه بظلمها وقسوتها ، وسيبدأ اختفاء الرقاعة والميوعة من الأغانى والأدب ، وسنجد أننا أمام إنسان يحب عمله ويبذل فيه أقصى جهده ، ويحب وطنه ويدرك أن الوقت هو الحياة ، وأى تفريط فيه يعنى التفريط فى الحياة ، وسنجد إنسانا يستطيع أن يضحى بماله ونفسه من أجل النوع الإنسانى الذى يشاركه مرارة الأيام أو حلاوتها .. وليس هذا كله سهلا ، ولكنه الحل الوحيد من أجل إصلاح الحياة .

رائحـــة الماضـــى

أحيانا يتصاعد عطر لاتعرف من أين جاء ، ولا ترى أجنحة الهواء التى تحمله .. عطر غريب يتراوح بين الحنين والتوهج ، عطر مدهش تحس أنك تعرفه قبل ذلك ، صافح حواسك فى مكان ما أو زمن ما أو عصر ما .. هذه رائحة الماضى ..

وللماضى سحر لا يعرف تأثيره المسكر سوى الحاضر الشتائى البارد . ويبدأ الماضى فى زيارة الحاضر عادة بعد الأربعين عند النساء ، وبعد الخمسين عند الرجال ، وبعد اليوم الثانى عند الزهر ، وبعد العام الثامن عند الكلاب ، وبعد اليوم السابع عند القطط ..

تكون سائرا فى الطريق وأنت ترتجف من البرد وسط شارع يبدو كالصحراء القاسية التى لا يعبرها أحد .. ثم تتوقف فجأة .. آه .. ثمة خيط عطرى يحرك داخلك آلة الكمان فتسمع عزفا يذوب ولا ترى يد العازف .. وتتلفت حولك : من أين يأتى هذا العطر ، أتراه قادما من غرفة الذكريات داخل القلب الإنسانى ؟ .

وتذكر أنها كانت لحظة مدهشة .. تذكر إحساسك باللحظة ولا تذكرَ اللحظة ، تذكر كيف دمعت عيناك ورق

فؤادك ، وأحسست أنك تريد أن تنحنى على الأرض وتحتضنها كلها فى صدرك ..

وتعود إلى السير ، ويزيد حنينك لوجه لا تذكر ملامحه ، وجه اللحظة الغارقة فى ضباب الماضى ..

وتبدأ فى الطواف حول تماثيل الماضى ومعابده داخل نفسك .. آه .. هاهى ذى حتحور .. إيزيس .. نفرتيتى .. حتشبسوت .. كليوباترا .. ثم ها هو ذا وجه أجمل من كل الوجوه لأنه بلا ملامح .. تختفى ملامحه وراء نقاب سميك .. انتهى الأمر ياسيدى وصرت شاعرا عاشقا سحره عطر أفلت من سجن الماضى .

تعرف أنك نضجت .. أنضجتك شمس استوائية كانت تسطع داخل السموات فى روحك وأنت لاتدرى .. ومع النضج يا صديقى يبدأ الإنسان يهرم ، وحين يهرم الإنسان ويحس بالوحدة ويرتعش من البرد ، يلتف الماضى فى عباءة العطور ويزورك ..

أجلست الماضى أمامى ورحت أحدق فى أحزانه .. كانت يده عطرا فلم أستطع تقبيل يده .. مر العطر بسرعة الضوء ولمعت النجوم فى خاتم اليد ، خاتم مساحته تمتد إلى كل المجرات وتتعداها إلى فراغ الكون الهائل .. هل تحس أنك وحدك فى الكون .. لاتبتئس .. لست وحدك .. مر عطر الماضى ولكنه لم يزل هناك .. لم يبتعد كثيرا عن قلبك .

تأملات فى الهاموش

حين أضيء النور وأجلس إلى مكتب فى الليل لأكتب ، يبدأ توافد الهاموش على الضوء . والهاموش ليس ناموسا رغم أنه يطير ، وليس طيورا ولا طائرات رغم أنه يشترك معهما فى القدرة على الطيران ، فما الهاموش إذن ؟

إن غموض الهاموش يجعلنى أتردد فى الإجابة عن السؤال ... وليس الهاموش نوعا واحدا رغم أن ملامحه متشابهة ، فى الهاموش أنواع تختلف كما يختلف الناس ، هناك هاموش مغامر يندفع نحو ضوء المصباح ، ثم يهوى محترقا بعد أن يعانق الضوء ، وهناك هاموش عمره أطول من عمر أخيه المغامر وتصرفاته أغرب ، إنه يدور حولك ثم يقف على المكتب ، وتقترب أنت لترى من هذا الذى احتل مكتبك دون إذنك ، ويقترب تنفسك من الهاموش فتطير الهاموشة من نفخة هواء التنفس . إلى هذا الحد يبلغ ضعف الهاموش،إنه يطير بنفخة ، وفى الهاموش أنواع مؤذية وإن كان أذاها ضعيفا لايذكر ، هذه الأنواع تقرص ، تقف الهاموشة

على ذراعك وتطيل الوقوف ، ثم تحس بلسعة خفيفة كأنها (هزار) ، وان كان هزاراً ، يغيظ ، وتمد يدك لإزاحة هذه الهاموشة التي اجترأت عليك ، وفى نفس الوقت الذى تحتفل فيه الهاموشة بانتصارها إذا يدك تزيحها — دون قصد — فتموت ..

ويعيش الهاموش ليلة واحدة ، يطير فى سماء الغرفة ويدور ويطن ويهبط عموديا ، ويبدو كأن سماء الغرفة ملكه وحده ، ثم تمضى ساعات ويجىء الفجر ، ويسقط الهاموش ميتا على المكتب ، اختار قبرا عظيما من الكتب والورق ، وتسأل نفسك: من أين جاء هذا الهاموش وإلى اين يذهب ؟ ولماذا يندفع بقوة قاهرة لاتقاوم نحو الضوء ؟ هل كان يحس بالخوف والوحدة والبرد فى الظلام ؟ وإذا لم يكن يحس فما سر اندفاعه وطوافه حول النور حتى يسقط محترقا من التعب ؟

وتنفرط حبات الأسئلة .. هل يتزوج الهاموش وينجب ؟ ما تقاليده فى الزواج وتربية الأطفال ؟ ما طباع الهاموش حين يكون طفلا ؟ هل يدرك الهاموش أنه حى وسيموت ؟ هل يعرف أن احتضانه للضوء يعنى احتضانه للموت ؟ هل يذكر الهاموش الحى الذى سيجىء غدا هذا الهاموش الذى مات أمس ؟ هل يحزن الهاموش على الموتى ؟ هل يضحك ؟ ما لغته ؟ هل فى الهاموش كتاب وشعراء .. من أدباؤه وعلماؤه ؟

عشرات الأسئلة تدور فى رأسى كلما هبطت هاموشة فوق ذراعى أو دخلت بين صفحتى كتاب أقرؤه ، وأحيانا أثنى الصفحة فينتهى عمر الهاموشة بسبب حركة غير مقصودة ، ويملؤنى الحزن على الهاموش الذى يموت ، كما تملؤنى الحيرة إزاء الهاموش الصديق الذى يدخل غرفة المكتب ليؤنس فى الليل وحدتى ، وإن كان يدفع حياته ثمنا لهذا الإيناس ، لا أعرف شيئا له قيمة عن الهاموش ، هذا معناه أن الهاموش سر ..

وما أكثر الأسرار التى تمر علينا أو نمر عليها بعيون مغمضة .

لــن ترانـــــى

رغم أن الحب من أعجب المخلوقات التى لايمكن تطبيق قوانين الغير عليه ، فـإن له قوانينه الخاصة التى لا تنطبق على غيره من الخلائق .. وقوانين الحب أسرار ، وحل رموز هذه الأسرار غير ممكن ، لأن كل حب يحمل طابعه من السر ، ويحمل بالتالى قوانينه الخاصة ، رغم اعترافنا المبدئى بهذا كله .. فإن هناك قوانين عامة تنطبق على جميع حالات الحب ..

ومن هذه القوانين ما نلمسه ، ومنها ما يقع على رءوسنا كما وقعت التفاحة على رأس (نيوتن) فاهتدى لقانون الجاذبية ..

من هذه القوانين أن الإنسان إذا أحب طلب الرؤية .. فاذا أجيب إلى طلبه وارتوى ، صارت الرؤية حجابا من الرؤية ، وصارت مانعا من استمرار الحب ..

وهذا ما يعرفه العامة باسم الملل .

إن كل شوق المحبين وتوهجهم (يطش) فى صقيع الملل بعد اللقاء الكامل مثلما (تطش) قطعة الحديد المحمية فى الماء المثلج ، وهذا هو سر فشل كثير من قصص الحب حين يتصل المحبون ويعيشون معا سواء بالزواج أو غيره من صور العشرة .

وأعظم حب فى الدنيا يتحول بعد الزواج إلى أسرة وأولاد ، ويتجزأ الحب ويتوزع على الأولاد والعمل والحياة ،

ويضيع جوهر الاشتعال الداخلى الذى كان موجودا فى الماسة القديمة ..

نصير أمام صورة أخرى .. إن الماسة القديمة التى كانت تشتعل فى عيون الحبيبة صارت نظرة راكدة متعبة صابرة فى عينى الزوجة .. أين ذهبت الماسة القديمة ..

لقد أدت غرضها وقامت بمهمتها فى استمرار الحياة .. وبانتهاء مهمتها تنصرف .. تدخل متحف الذكريات فى العقل البشرى وتبهت مع الأيام وتضيع .

لا تقل لى كيف أحتفظ بالماسة إلى الأبد ؟

هذا سؤال قد يكلفك حياتك ؟ أو راحتك ؟ أو يشعلك نورا ونارا .

هل تريد أن تحتفظ بالماسة على الأرض ، أمامك جحيم الشعراء فهلا تفضلت بدخوله ؟ ، إذا ترددت فسوف تفهم هنا لماذا جعل الله الحب الإلهى مستعصيا على الرؤية ، وسوف تدرك السر الذى لم يدركه موسى عليه السلام ، لقد طلب الرؤية وقيل له : ﴿ لن تراني ﴾

وبهذا المنع اتصل العطاء وتحددت حقيقة الحب الإلهى .. هو وحده الذى يظل مشتعلا من داخله كالماس .. وهو وحده الباقى الذى لا يزول ولا يحول ولا يتغير ولا يتبدد ولا يذهب ولا يختفى ..

هل أدركت سر رحمة الله فى قوله : ﴿ لن تراني .. ﴾ .

أقنعة الحقيقة السبعة

كيف تحدث من لم يذق طعم النبيذ عن تحولات العنب ..

كلمة كتبها جلال الدين الرومى وهو يتحدث عن رجل هو الوهم ، ذهب يبحث عن الحقيقة ، وقطع وديانا ووهادا وصعد تلالا وجبالا ، وسار فى حقول الملح المتبقى من دموع المحبين ، وظل يسير تحت الشمس ويخوض فى الثلوج حتى وصل إلى كهف غائر ، تقف فيه أميرة الحقيقة وعلى وجهها الأقنعة السبعة ..

كانت غاضبة تشيح بوجهها عنه ، وأحس أنه يختفى حين ظهرت فى الصورة و لم تنظر إليه ، ذاب فى صدره حنين كان فى الأصل بكاء تجمد وهو يعبر ثلوج القمة ..

قال – أنت لا تنظرين إلىّ

قالت – لم أعد أستطيع ..

تهاوى على قدميه وانخرط فى البكاء .. لم تنبت من دموعه زهرة واحدة فأدرك أن دمعه نفد وهو يبكى الآن بقلبه .. وكان الدم يقتل بذور الزهر. لم تنظر إليه فانخرط يحكى

لها عن أهوال عاينها وهو فى الطريق إليها ، أشار لقدميه المشققتين من السير ، وأراها وجهه الممتقع من السهر ، ومزق قميصه لتشاهد آثار مخالب التنين الذى صارعه ، رغم ذلك لم تنظر إليه ..

أنهى كلامه بقوله : لقد مت وولدت فى رحلتى عشرات المرات .. كنت أنصهر فى قلب الشمس ، واتجمد فى قاع الثلوج وأسير متجها نحوك .. اخلعى قناعا من أقنعتك لأرى وجهك ..

ألقت إليه قناعا من أقنعتها وظلت على وجهها بقية الأقنعة .. عاود تضرعه وبكاءه ، وأنشأ يحدثها أنه أحس بالعمى حين حدثته أنها لن تراه .. كان مجرد قولها يسدل على الدنيا أمام عينيه ستارة سوداء سابغة .

وضحكت ضحكة قصيرة لم يعرف سرها وألقت إليه بقناع آخر .. وظلت على وجهها بقية الأقنعة ..

عاود حديثه عن حبه للأميرة .. مس طرف ثوبها وحاول أن يقبله ... أسكره العطر المتصاعد من تنفسها ، وعبق المكان بطعم عنقود من العنب أصابه العشق فذبل ، ثم تحول إلى حبات من الزبيب ، وبكت كل حبة فولد من بكائها النبيذ .. ودار رأسه قبل أن يمس بشفتيه طرف الأبريق ، مات عنقود العنب أثناء تحولاته .. وأدرك وهو ينظر إليه حقيقة الفرق بين جسد الصدق ووهم الكذب ، لكى يولد الصدق

لابد أن يموت الوهم ، وهو يسعى لكشف أقنعة الحقيقة السبعة وهو لم يزل حيا ... أدرك أن وجوده على قيد الحياة دليل كاف على انهيار دعواه ...

أدرك أن الحقيقة لن تكشف له من أقنعتها أكثر مما كشفت ، وخرج إلى البحر ، ألقى بنفسه فى قاربه وقطع كل الحبال التى تربطه بالبر فاندفع القارب فى الهياج الجامح .. كان الموج يرتفع لحظة بعد لحظة .. وبدأت الأمواج تملأ القارب .

الفهـــــرس

الموضوع | **الصفحة**